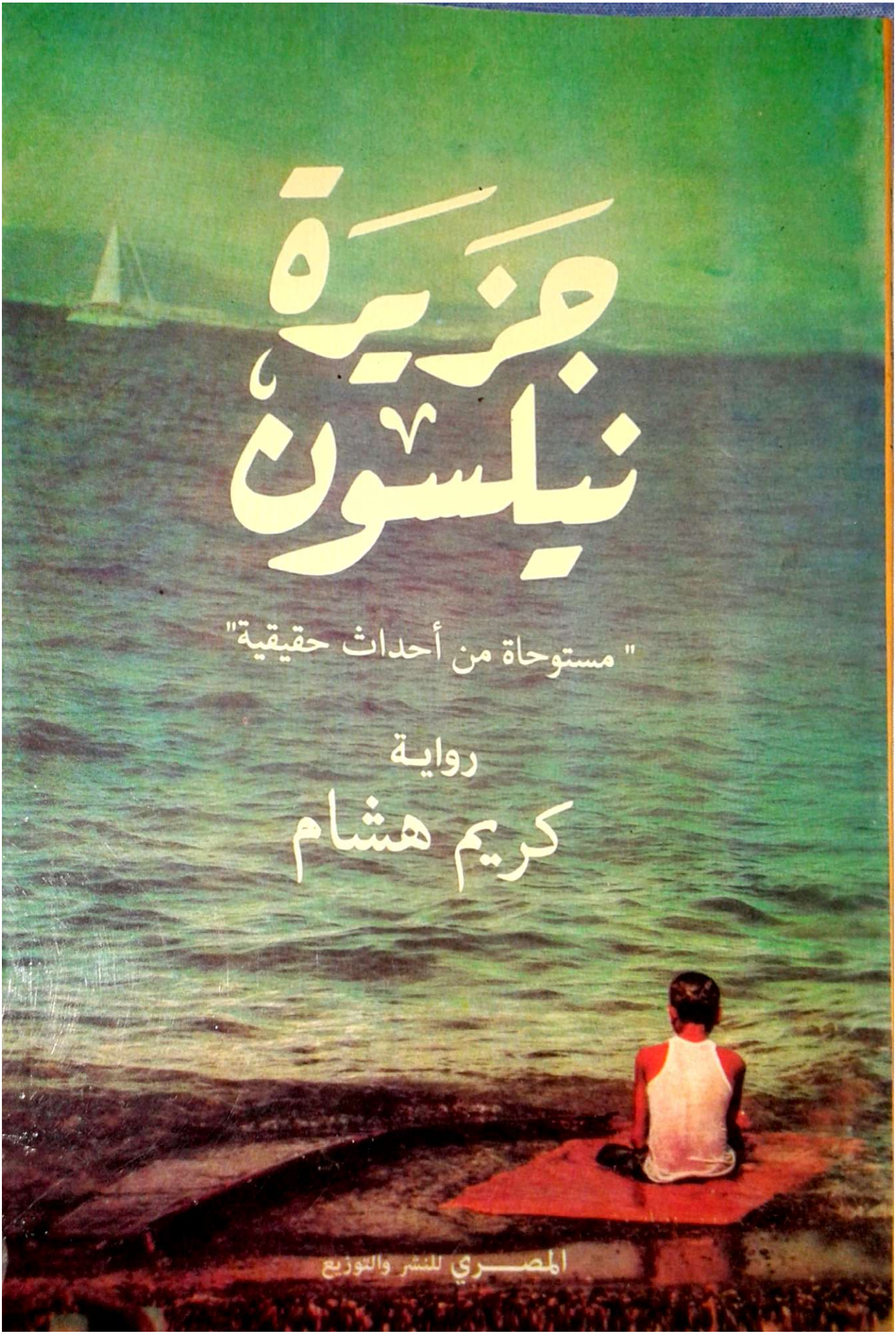

Scanned by CamScanner

إهداء إلى

أعضاء جروب بيت الكتب الكرام

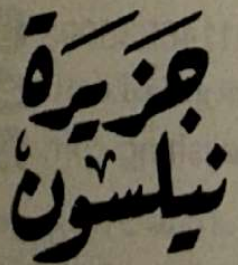

Scanned by CamScanner

جزيرة نيلسون
كريم هشام
تصميم الغلاف
كريم آدم
المراجعة اللغوية
محمد عبد الخالق
محرر فني
أحمد متاريك
الطبعة الأولى ٢٠١٦م

رقم الإيداع:2016/14660
ISBN: 978-977-770-047-4

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: **يوسف ناصف**
عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة

+2 01146335098
elmasrypublishing@gmail.com
www.elmasrypublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

Scanned by CamScanner

جزيرة نيلسون

رواية

كريم هشام

حصريات
جروب بيت الكتب

دار المصري للنشر والتوزيع

Scanned by CamScanner

إهداءٌ مُعتادٌ إلى أهمِّ امرأةٍ فى حياتي.. أُمِّي.

إلى حبيبتي وزوجتي..

وإهداءٌ خاصٌّ إلى مَنْ أنتظرُ قُدومَها بشغف.. ابنتي.

إلى مَنْ دُمِّرَتْ بلادُهم، وفقدوا أعمالَهم، ومات أحباؤهم..

إلى وطنٍ كان جميلًا يومًا ما، وأصبح اليومَ رمادًا..

إلى مَنْ يدفعون ثمنَ حربٍ، لم يُشعلوها، ولم يُريدوها يومًا.

الحربُ لُعبةٌ، يُمسِكُ بخيوطِها مَنْ يملكون القوةَ؛ يُحرِّكونها كيفما شاؤوا، ويُشاهِدون الأبرياءَ وهم يدفعون ثمنَها.. وَحدَهُم.

حرب بيت الكتب

Scanned by CamScanner

الأحداثُ التاليةُ -للأسف- واقعيةٌ، وتَمتُّ للواقعِ بكُلِّ صِلَةٍ، إلَّا أن ما ستقرأونه لا يُمثِّل إلا ٠,٠٠١٪ مِمَّا يحدث على أرضِ الواقع؛ فمَا يحدثُ أشدُّ بشاعةً.

١

جروب .بيت الكتب

وقف المُهرِّبُ أمامَهم مُشهِرًا سلاحَه في وجوههم، وهو يصرخ فيهم لكي ينزلوا عن مركبه. لم يكن هناك سوى صوتِ الأمواج المتلاطمة، وبكاء الأطفال، وصُراخ النسوة، وعراكِ الرجال. كانتِ الأمورُ كلُّها مُتداخِلةً لديهم. ليستْ هذه هي إيطاليا، وليستِ اليونانَ.. فما هي؟!

كان الليلُ قد هجم، والأصواتُ تتعالى: أطفالٌ يصرخون، ونسوةٌ خائفات، ورجالٌ مُرتعِدُون. الوضعُ أصبح مأساويًّا أكثرَ مِمَّا هو عليه. أمسَكَ مازنُ الهاتفَ الذي استطاع أن يأخذَه عنوةً من المُهرِّب، واتصلَ برقمٍ أعطاهُ إيَّاه.

كانتْ صرخاتُ طفلٍ بعَينِه تتعالى، يبدو أنه جائع، أو شيء من هذا القبيل، حتى صاحَ رجل:

"ما في شي ناكله؟ ابني راح يموت م الجوع! "

Scanned by CamScanner

كان كلٌّ حينئذٍ مشغولاً بشأنه. الكل في موقف لا يُحسدون عليه.

الجميعُ في حالةٍ مُزريةٍ، إلاَّ أن أحدَهم أخرج من حقيبتِه كيسًا بلاستيكيًّا، أخرج منه عُلبةً مُغلقةً بإحكام، وأخرج منها قطعتين من "البسكويت"، وأعطاها للرجل: ليُسكِتَ هذا الطفلَ المسكين.

قام مازنُ ليسيرَ وسطَ هذا الجمع التائه، المُتلاطم، الذي قذفتْه أمواجُ البحرِ الغاشمةُ إلى حيث لا يريد.

تأمَّلَهم بأعينٍ دامعة: مَنْ تبكي، ومَنْ يصرخ، ومَنْ يكتمُ دمعَهُ ليُحافِظَ على رباطة جأشِه أمامَ زوجتِه وأطفالِه، مَنْ يقرصُه الجوعُ، وكلٌّ يبكي على ليلاه.

مرَّتْ ساعةٌ منذ أن اتصلَ مازن، حتى بدأوا يسمعون صوتَ "لانشاتٍ" تقترب، ومعها سارينة الشرطة المعروفة. كان خَفَرُ السواحلِ قد وصلوا، كان العددُ على الجزيرة كبيرًا، مِمَّا استدعاهم لطلبِ عددٍ آخرَ من "اللانشاتِ" البحرية؛ حملوا كلَّ مَن كانوا على الجزيرة، وتحركوا بهم تجاهَ قِسمِ شُرطةِ (كَرْموز).

في القِسم، أحضروا لهم البطاطينَ، والطعامَ والشرابَ اللازمَين؛ فقد كانوا جميعًا جائعين، وكانتِ الأمواجُ والبحرُ قد فَعَلا بهم ما فَعَلا، حتى كاد بعضُهم يموت. أمَّا على الجهة الأُخرى من القسم، وتحديدًا في مكتب المأمور، كانتِ الاتصالاتُ

Scanned by CamScanner

تتمُّ لمعرفةِ ماذا سيفعلُ في تلك المُصيبة، التي حلَّتْ عليه من حيث لا يدري ولا يحتسب.

***

- مساء الخير يا فندم.

- مساء النور يا هيثم، إتفضَّل.

يدخل هيثمُ إلى مكتب مدير الجهاز. مكتبٌ لا يليق إلا برجلٍ قويٍّ مِثلِه، له في الداخلية صولاتٌ وجولاتٌ، فكم من مُجرِمٍ استطاع أن يُلقِيَ القبضَ عليه، وكم من تاجر مُخدِّراتٍ، مشهودٍ له بالسطوة والقوة، تمكَّنَ من ضبطِه بعدَ مُراوغاتٍ، ومُناوراتٍ، والكثيرِ من الرَّصاصاتِ المُهدَرَةِ والجثثِ المُلقاة، وكم من عمليةٍ إرهابيَّةٍ تمكَّن من إحباط مُخطَّطِها..

اللواءُ عبدُالله النشَّار، رئيسُ جهازِ الأمنِ الوطني، الذي لم يجدْ وزيرُ الداخليةِ أفضلَ مِنْه ليضعَه في هذا المنصب الحسَّاس؛ فالرجلُ الذي سبقه كان كثيرَ المُشكِلات، تناثرتْ حوله الشائعاتُ والقيل والقال، ووضعُ البلد لم يَعُدْ يسمح بكل هذا؛ فكلُّ شيءٍ الآنَ يتمُّ توثيقُه فورًا على الفيسبوك أو اليوتيوب، ولم يعد في الإمكان السيطرةُ على الأمر كالسابق، فهذه معركةٌ بينَ ضابطِ شُرطةٍ وسائق، وتلك بينَ عميدٍ بالجيشِ ومُواطن، كلُّ شيءٍ مُوثَّقٌ بالصوت والصورة. والشائعةُ الأخيرة التي طالتِ الرئيسَ السابقَ للجهازِ.. لم تكن شائعةً، بل واقعًا، ولم يكن بيَدِ القياداتِ شيءٌ سِوى تغييرِه.

Scanned by CamScanner

كان هذا هو القرارُ الأصحُّ في تلك المرحلة. وكان اختيارُ اللواءِ النشَّارِ خُطوةً جديدةً لوضعِ الأمورِ في مسارِها الصحيح.

- خير يا فندم. حضرتَك طلبتُ تقابلني.

- إنتَ شغَّال حاليًا على مَلَف مُكافحة الإرهاب. صح؟

- تمام سعادتك.

- عايزَكْ تمْسِك مَلَف تاني خالص الفترة دي. مَلَف مُهم جدًّا. ولازم تركِّز فيه.

- تحت أمر سعادتك.

- المَلَف الجديد هيبقي مَلَف الهجرة غير الشرعية.

- بسّ دي كانت مع المُقدّم أحمد الأهواني حضرتك!

- عارف. بس الأهواني مش النوع اللي يعرف يتعامل مع القضايا دي. الأهواني غشيم. لازم أبْعِدُه عن الاحتكاك بالناس دي بالذات على أدّ ما أقدر. الأهواني لو بيحقق مع واحد. وعاند معاه شوية. مُمكِن يطلَّع سلاحُه ويضربُه بالنار. وساعتها هيوَدّي نفسُه فداهية وهيوَدّينا معاه. وإنتَ شخص عاقل وراسي. ومن مُتابعِتي لمَلَفّك. أقدر أقول إنَّك الشخص المُناسب للمُهمَّة دي. هتلاقي على مكتبك مَلَف. اقراه كويّس. وهنتناقِش فيه بعد يومين. تقدَرْ تتفضَّل.

انصرف هيثمُ من مكتب اللواءِ النشَّار دون أن يفهمَ مِنْه شيئًا

Scanned by CamScanner

مُفيدًا. لم يكن هيثم السعيد مُجرَّدَ مُقدِّمِ شُرطةٍ ذي سُمعةٍ طيبةٍ وحسب، بل كان مُتفوِّقًا في عمله. انتقلَ إلى جهاز الأمن الوطنيِّ منذ ست سنوات . ومن المعروف أن هذا الجهاز لا يضم سوى (ولاد الناس) من الضباط. هو جهازٌ حسَّاسٌ للغاية؛ لذلك عادةً ما يكون الاختيارُ في مُنتهَى الصعوبة.

اتجه إلى مكتبه. لَمَّمَ أوراقه المُهِمَّةَ. وأخذ سلاحَه. وخرج مُتَّجِهًا إلى سيارته.

كان التعبُ قد نالَ مِنْه. فهو لم ينمْ منذ ثلاثةِ أيامٍ مُتواصلةٍ؛ بسبب المهام التي كانت تُوكلُ إليه. ما إن دخل البيتَ حتى استقبلتْه أمُّه بكلماتِ الترحاب المُعتادة..

- تحب أغرِفُ لَك تاكُل يا حبيبي؟

- مُتشكِّر يا ستّ الكُل. سيبيني بَسْ أدخل أنام. وما تصحِّينيش لحدْ ما أصحى لوحدي. وساعتها نشوف موضوع الأكل ده.

اتَّجَه إلى غرفته. ونظر إلى الأوراق التي أعطاها له المدير. تأمَّلَ الكلماتِ جيدًا. وقرَأها عدةَ مرات (ا ل ه ج ر ة غ ي ر ا ل ش ر ع ي ة).

- هيَّ الناس دي بتعمل في روحها كده ليه؟ يلَّا أنا مالي. ياكشي يارب يهاجروا كوالالامبور!

نظر إلى هاتفِه وأسلمَ نفسَه لنومٍ عميق.

***

Scanned by CamScanner

"لم يكنِ البحرُ هادئًا هذه المرة. كانت هناك الكثيرُ من العواصف. لم تكنِ السفينةُ قادرةً على الصمود لمدةٍ أطول. كانتِ الأمواجُ الهائجةُ أقوى من أيِّ سفينةٍ مهما كان حجمُها أو صلابتُها. كان الخوف هو كل ما يُسيطِرُ عليه. يسمع أصواتَ استغاثاتٍ. ولكنه لا يرى أحدًا. يُحاوِلُ أن يعثُرَ على أيِّ شخصٍ يستطيعُ إنقاذَه. ولكنه لا يجدُ أثرًا لمخلوق. يُهرولُ في أرجاء السفينةِ الضخمةِ سعيًا وراءَ تلك الأصوات والصرخات. إلَّا أن كلَّ مُحاولاتِه تذهبُ هباءً. ولا يشعر بعدها سوى بتلكَ السفينةِ تتمايلُ بقوةٍ حتى أنها تكاد تغرق. ثم موجة قوية. ترتطم بجسده. فترميه ليصطدمَ رأسُه بجدارِ السفينة. ويذهبَ في عالمٍ آخَر.."

يستيقظ هيثمُ فزعًا. إنها ليستِ المرةَ الأولى التي يأتيه فيها هذا الحُلُمُ الغريب. ينظر حولَه ليتأكَّدَ أنه على سريرِه وفي غُرفتِه. وأنه لا توجد أيُّ مياهٍ أو سُفُنٍ أو صرخات. يُحاوِلُ أن يتحرَّكَ. إلَّا أنه يشعرُ بألمٍ في جسدِه بأكملِه.

حاول كثيرًا أن يعرفَ تفسيرًا لهذا الحُلُمِ الغريب. إلا أنَّ أحدًا لم يأتِه بردٍّ مُقنِع. حتى أمُّه الخبيرةُ في هذه الأمور. لم تفهم شيئًا. ولم تقلْ له سوى أنها أضغاثُ أحلامٍ. وألَّا يُلقِي لها بالا.

اتَّجه ناحيةَ الثلاجة. وأخرج منها بعضَ الطعام. لم يجدْ أُمَّه كعادتها. فدخل إلى غرفتها ليطمئنَّ عليها. وجدها تغطُّ في نومٍ عميق. فلم يشأ إزعاجَها. فأغلق عليها البابَ وتركها.

يرنُّ هاتفُه. فيتجه إلى غرفتِه؛ حيثُ تركه:

Scanned by CamScanner

"يووووووه. عايزة إيه يا رنا دلوقتي؟!"

بعدَ تردُّدٍ لثوانٍ، ردَّ عليها:

- أيوَه يا رنا. إزيّك؟!

- إزيّك يا هيثم. فينك؟ بقالي يومين مش عارفة أوصل لك. ولا عارفة عنك حاجة. ينفع؟!

- معلّش. شغل كتير ولخمة. إنتي شايفة البلد: كل يوم تفجير. وكل يوم ناس تموت. ومش عارفين نرتاح. أنا حتى ما نمتش إلّا من كام ساعة. ولسّة صاحي.

- طيّب هشوفَك إمتى؟ جروب بيت الكتب

- مُكِن كمان ساعتين كده. أغيّر وأجيلِك في الكافيه اللي متعوّدين نقعُد فيه.

- تمام. أشوفك هناك. باي.

- باي.

يضعُ الهاتفَ على السرير. ليلتفتَ ويجدَ أمَّه تقف خلفَه. فينتفض رعبًا:

- إيه يا واد. شفت عفريت؟!

- لأ يا ماما. مش عفريت بس يعني إنتي خضيتيني. أصلِي لسّة داخل عليكي الأوضة لقيتك نايمة. فمتوقّعتِش إنك هنا. وبعدين يا ماما مش هتبطَّلي العادة دي: كل شوية ترمي ودنك كدا؟!

Scanned by CamScanner

- يابني بتطمّن عليك. إيه. كَفَرْت؟!

- يا ستّي مكفرتيش ولا حاجة. بس يعني أمّا تعوزي تعرفي حاجة. إسأليني وأنا هقولّك.

- طب قولّي.

- أقولّك إيه؟

- ولاا.. إنتَ هتهزّر؟! جروب بيت الكتب

- خلاص متتعصّبيش. مفيش.. أنا بس مش مظبوط اليومين دول؛ بسبب الشغل. والشغل الجديد اللي داخل عليه ده.

- ورَنَا؟

- معرفش يا ماما والله. الحياة مش وردي يعني. معرفش أنا اللي زهقت وملّيت. ولّا ده بسبب ضغط الشغل. ولّا إيه بالظبط. والله ما عارف. وهي مش مستحملة. وعايزة طول الوقت تدلّع وتخرُج. وأنا دماغي مفيهاش مكان لكل ده. أنا عايز واحدة تشيل معايا الحِمل. مش تبقي هي حِمل زيادة.

- قوم قابلها زي ما قلتلها. وإتكلّم معاها في كل حاجة. وقولّها كل حاجة جوّاك. لو دي البنت اللي فعلًا عايز تعيش معاها وتبقى مراتك. لازم تعرفوا تتكلّموا سَوَا. لازم يبقى فيه لغة حوار بينكم. لازم تعرفوا تحلّوا مشاكلكم سَوَا بالكلام والتفاهُم. الاتنين إن ما كانوش يعرفوا يتكلّمُوا سَوَا. يبقي العيشة مالهاش لازمة.

Scanned by CamScanner

ارتدى ملابسَه، واستقلَّ سيارتَه، حتى وصل إلي "الكافيه" الذي اعتاد مُقابلتَها فيه، لطالما كانت جميلة، دومًا هي مُتأنّقة، تعرفُ ماذا ترتدي، تختارُ عِطرَها بعنايةٍ فائقة، حذاؤها يتوافق مع لون حقيبتها. لم تكن يومًا فتاةً عاديّةً، ولم يكن حبُّه لها عاديًّا، ولكنه لا يعرف تحديدًا ما الذي أصاب جذورَ هذه العَلاقةِ لتهتزَّ هكذا!

وبينما هو في سيارته، تذكَّرَ كلَّ شيءٍ حدث، كلَّ ما مر بهما، تذكَّرَ كيف بدأ الأمر، وما آلَ إليه لاحقًا.

رآها من بعيد، تضع قدمًا على قدم، تجلس في أناقةٍ تامَّةٍ، وكفَّاها يتحركان في توتُّرٍ واضح، اقترب منها، ما إن رأتْه حتى قامتْ وتحرَّكتْ نحوه، احتضنتْه بقوَّةٍ، وطبعتْ على وجنتيه قُبلة.

- وحشتني يا هيثم. حروب بيت الكتب

- وإنتي كمان وحشتيني، عاملة إيه؟

- عاملة مش كويِّسة من غيرَك.

- معلش، أنا الفترة دي الدنيا ملخبطة معايا على الآخِر.

- ملخبطة معاك، يبقي تيجي في حُضني زيّ ما إنتَ متعوِّد، وتحكيلي كل اللي مضايقَك، وأشيل معاك وأخفِّف عنَّك، ما تبعِدْش يا هيثم.

- هوَّا يعني طبعي ولَّا هشتريها! إنتي لسَّة عارفاني إمبارح يا رنا!!

Scanned by CamScanner

- الطبع الزفت الوحيد اللي فيك اللي ماعرفتش أغيّره.

- يا رنا. مفيش حدّ بيتغيّر علشان حدّ يا حبيبتي. وإنتي عارفة ده كويّس. الناس بتاخُد بعضَها زيّ ما هيَّ كده "Package": يا تتّاخد زَيّ ما هيَّ. يا تتساب زَيّ ما هيَّ. إنما شغل التفصيل ده ما بينفعش. وما بيدومش. بقولّك إيه: سيبِك من الكلام الكبير ده. أنا جعان.. تاكلي معايا؟ يبقي تاكلي معايا.

نظرتْ إليه باستغرابٍ. وكأنها تَوَدُّ لو تقول له: إنتَ مجنون يابني!

وبعد ما يقرب من النصف ساعة. تلقَّى هيثمُ مُكالمةً هاتفيَّةً من رئيسِه: يُخبرُه فيها أن عليه. في صباح الغد. التوجُّهَ إلى أحد الأقسام في مدينة الأسكندرية. وهناك سيجد المُحتجَزين الذين سيُحقِّقُ معهم. قبل أن تلتقيَهم لجنةٌ أُخري أجنبيَّةٌ: لتنظُرَ في أمر ترحيلِهم إلى عدَّةِ بلدان.

لم يكنْ يتفهم طبيعةَ المطلوب منه تحديدًا. سوى الإشراف على عملية التحقيق. حتى إنه لم يهتمّ بالأمرِ من قريبٍ أو من بعيد. قضيةٌ مِثلُها مِثلُ غيرِها. ينتهي منها. ثم يضعُ مِلَفَّها بجانب المِلَفَّات الأُخرى.. وانتهى الأمر.

أخبره أنه سيلتقي هناك بمُترجمةٍ تتحدث اللغتين: الفرنسيةَ والإنجليزية. وأنها من ستُساعِدُه في الترجمة بينَه وبينَ المُحقِّقين الأجانب. وكذلك بين المُحقِّقين والمُحتَجَزين. هو في الأساس مُتعَبٌ

Scanned by CamScanner

للغاية. مُرهَقٌ لدرجة أنه يرغب في النوم لمدة يومين مثلًا. دونَ أن يوقِظَه أحد.

أكمل جلستَه مع رنا. تحدَّثا كثيرًا. ثم تركَها ليذهبَ إلى منزله؛ ليُعِدَّ حقيبةَ سفرِه.

في صبيحة اليوم التالي. ارتدى بذلتَه المفضلة. وأخرج زجاجةَ عطرِه. نظر إليها جيدًا. تفحَّصَها. أو على الأرجح. تأمَّلَها. ظلَّتْ قابعةً في دُولابِه لمُدَّةٍ طويلةٍ. إلَّا أنها لم تفقدْ ما يُميِّزُها.

دائمًا ما يقولون أن ما يُميِّزُ الهديةَ هو (مَنْ). وليس (ماذا)..

تستمدُّ الأشياءُ قيمتَها من قيمةِ أصحابِها بداخلنا؛ كُلَّما اقتربَ هذا الشخصُ من القلب. كُلَّما ازدادتْ قيمتُها. وغلا ثمنُها في قلوبنا. وأصبح الاستغناءُ عنها أمرًا مُستحيلا.

لذلك. كان الاستغناءُ عن زجاجةِ العطرِ هذه تحديدًا أمرًا مُستحيلًا. وليس صعبًا. تقريبًا هي آخِرُ ما تبقَّى من أيَّامٍ ولَّتْ. أيَّامٍ بكى عليها كثيرًا. أيَّامٍ كادتْ أن تقتُلَه كَمَدًا. كاد أن يستقيلَ من عملِه الذي لا يملِكُ غيرَه. أيَّامٍ اضطرتْهُ أن يذهبَ إلى طبيبٍ نفسيٍّ كي يُحاوِلَ أن ينسى. ولكن. من قال أن النسيانَ سهلٌ. أو أنه مُمكِنٌ أصلًا؟!

نحن لا ننسى. النسيانُ صفةٌ بشريَّةٌ يَحمَدُ الناسُ اللهَ عليها كلَّ يومٍ. حتى إنهم يقولون: "النسيان نعمة". ولكنهم جميعًا مُخطئون. نحن لا ننسى. إلَّا عندما نفقدُ الذاكرةَ فقط.

Scanned by CamScanner

فيما عدا ذلك، فإن كلَّ خُطوةٍ نخطوها، تُخزَّنُ في ذاكرتنا. فما بالك بعلاقةِ عشقٍ استنزفتْكَ تمامًا! أخذتْ مِنْكَ أيَّامًا وسنينًا.. نحن لا ننسى.. يُمكِنُ القَولُ أننا نتناسى حتى نستطيعَ أن نعيشَ حياتَنا مرةً أخرى بصورةٍ شِبْهِ طبيعيَّةٍ، ولكننا لا ننسى.. بل نتناسى إن اضطرَرْنا لذلك. لا ننسى مَنْ كانوا يومًا جُزءًا من أرواحنا. مَنْ كانوا هم الدافع الوحيد كي نعيش.

ظل واقفًا أمامَ الدولابِ المفتوح، وبيده زجاجةُ العطر. ضبطَ نفسَه مُتلَبِّسًا وهو يستعيد ذكرياتِه القديمةَ. ارتسمتْ على وجهِه ابتسامةٌ لطالما غابتْ عنه لسنوات.

أغلق الدولابَ، وتأنَّقَ على غير العادة، طبعَ على جبين أُمِّه قُبلةً سريعةً، ثم استقل سيارتَه واتَّجه لمقرِّ عملِه قبلَ السفرِ للحصول علي بعض المُستندَات المُهمة.

***

كان هيثمُ مجنونًا بالفعل، أو هكذا كان بالنسبة لها.

(رَنَا) هي الابنةُ الوحيدةُ لأحد أشهر الأطباء في مصر، يمتلك مُستشفًى خاصًّا.

رَنَا هي أهمُّ إنجازاتِه كما يراها. تمكنتْ بذكائِها ومهارتِها أن تحصُلَ علي مجموعٍ كبيرٍ في الصف الثانوي، مما أهَّلَهَا لدخول كُلِّيَّةِ الطب، لتسيرَ على خُطى أبيها، ثم تتخرج لتجد الوظيفة السهلة المضمونة في مُستشفى أبيها. فتاةٌ لم تُعانِ تقريبًا في

Scanned by CamScanner

حياتها. وُلِدَتْ وفي فمها مِلْعَقَةٌ من "داماس".

ثم بدأت رَنَا تتمردُ على أبيها عندما بلغتِ الثلاثين: عندما بدأتْ تشعرُ أنها لم تعِشْ الحياةَ التي أرادتْها. عاشتْ فقط كما أراد أبوها: لم تتمكن من تكوين صداقات. لم يَدُقَّ قلبُها بحق. مُجرَّدُ إعجاباتٍ سريعةٍ ببعض الأشخاص العابرين: فاهتمامُ أبيها بمُستقبلِها جعله يَحصُرُها في إطار المُذاكَرَةِ والأبحاثِ فقط. لم يكنْ يهتمُّ بأيِّ جوانبَ أُخرى في حياتها.

لم يكنْ تمرُّدُها بالأمر السهل. فكانت تسهر خارجَ المنزل كثيرًا. تعرف كثيرًا من الأشخاص. مما زاد من قلقِه. ولكن الأمر كان خارجَ نِطاقِ السيطرة. فهي لم تَعُدْ صغيرة. ولم يَنَلْ أيٌّ مِمَّنْ تقدَّمُوا لخِطبَتِها شرفَ إعجابِها به. كانوا كلُّهم إمَّا تلاميذُ أبيها المخلصون. أو أبناءُ أصدقائِه في المهنة. زِيجاتٌ تقليديَّةٌ. ولكنها لم تُرِدْ هذا أبدًا.

حتى جاء يومُ ثُلاثاءٍ سخيفٌ. كما اعتادتْ أن تُسمِّيَه. يومٌ غيرُ واضحِ الملامح. كانت حالاتُ الطوارئِ كثيرةً. الكثيرُ من الحوادث. والكثيرُ من المرضي. كان الأمر لا يُحتمَل. حتى شعرتْ بأن أعصابَها علي وشكِ أن تنهار. فبالرغم من عملها في الطوارئ. إلا أنها لا زالت تُحافِظُ علي هذه الشخصية الرقيقة بداخلها.

كان الوقتُ قد تأخَّر. وأوشكت نوبتُها علي الانتهاء. وقبل أن تتجهَ لغرفتِها لتُبدِّلَ ملابسَها وترحل. سمعتْ صوتَ سيارةِ إسعافٍ مُسرِعة. وأنزل المُسعِفون منها شخصًا يرتدي بذلة

Scanned by CamScanner

بوليسية بيضاء، وقد تبدَّل لونُها من الأبيض إلى الأحمر؛ بفعل الدماء الكثيرة.

هرول الجميعُ تجاهَه، وبدأت رَنَا، بمُساعدة طبيبٍ آخَر، في اتخاذ الإجراءات الطبية؛ سألتُ أحدَ الضباط الذين كانوا معه، فأخبرها أنه أُصِيبَ بطلقٍ ناريٍّ بينما كانوا يُطاردون أحدَ المُجرمين.

انتهى اليومُ العصيبُ بإخراج الطلقة من جسد الضابط، وإيداعِه إحدي الغُرَفِ في المُستشفى، ليظلَّ تحتَ تأثيرِ "البِنج" لعدَّةِ ساعات.

ما إن استفاقَ الضابطُ من تأثير "البنج"، حتى تأوَّه طالبًا المُساعدة، هرولتُ إحدي المُمرِّضات للغرفة، طلبتُ مِنْهُ أن يستريح، وذهبتُ لتستدعيَ الدكتورة رَنَا.

دخلت رَنَا إلى الغرفة لتجده يحاول النهوض:

- معلِّش يا حضرة الظابط، صعب تقوم دلوقتي، هستأذنك بس تسترتّح دلوقتي.

- بس أنا عايز أخرج، مابحبِّش قعدة المُستشفيات.

- وهوَّ مين يعني بيحبها؟! بس معلِّش: الجرح صعب شويَّة، محتاج راحة، أنا الدكتورة رَنَا، وهبقى مسئولة عنَّك.. لو احتجت أيّ حاجة، أطلب من التمريض يندهوا عليَّا.

مكث هيثمُ في المُستشفى لمُدَّةِ أُسبوعين، كانت رَنَا تُوْلِيه اهتمامًا كبيرًا، كان يُعجِبُها إلى حدٍّ كبير، وهو كذلك، ربما أحبَّ

Scanned by CamScanner

اهتمامَها به، حتى لاحظتْ أُمُّه أيضًا هذا الأمر، فكُلَّما دخلتْ رَنَا وأُمُّه مُتواجِدة، كانت تُلاحظ النظراتِ المُتبادَلة، حتى قالتْ له أُمُّه ذاتَ مَرَّة:

- إيه يا بيه، عاجباك الدكتورة دي؟

- إنتي إيه رأيك؟ جروب بيت الكتب

- هي حلوة بصراحة، وشكلها بنت ناس، قوم بس بالسلامة، ولو عاجباك أخطبهالك.. هو إنتَ قُليّل!

- يا ستّ الكل مش موضوع قُليّل ولا مش قُليّل، بس يعني الحاجات دي ما بتجيش خَطْف كده.. سيبيها علي ربِّنا بس.

تطوَّرتِ الأمورُ بسرعةٍ كبيرة، خرج هيثمُ من المُستشفى، تقابلا، حكى كلٌّ منهما للآخَر عن حياتِه، أحبَّها: شكلًا ورُوحًا ومضمونًا، جميلةٌ، ذكيَّةٌ، مَرِحةٌ، كانت مُشكلتُه الوحيدةُ في والدها: لم يعرف هل سيُوافق على الخِطبَةِ أم سيعتبره مُجرَّدَ ضابطٍ لا يمتلكُ إلا راتبَه فقط، إلَّا أن والدَها وافق علي الخِطْبَة، وكانتِ الأمورُ كلُّها تسير على ما يُرام.

أحبَّها كثيرًا، كان يبذل أقصى ما في وسعه ليُسعدَها، وكذلك هي، عشقتْه، لم ترَ رجالًا بعدَه، كان هيثمُ كافيًا بالنسبة لها، معه أدركتْ معنى الاكتفاء، كما أنه لم يكنْ شخصًا سخيفًا: لم يطلب منها أن تقطعَ عَلاقتَها بأيٍّ من أصدقائِها، سواء الشباب أو الفتيات، وهو ما أزاد من إعجابها به: لم يكن هذا لِقِلَّةِ غيرةٍ

Scanned by CamScanner

أو ما شَابَه. ولكنها كانت ثقةً عمياءَ. على الرغم من أن جمالَها كان يجذبُ الشبابَ نحوَها بطريقةٍ غريزيَّةٍ غيرِ طبيعية.

ولذلك، أراد هيثمُ التعجيلَ بالخِطبَة.

لم يعرفْ هيثمُ سببًا لمشاعرِه المتخبِّطَةِ في الآونةِ الأخيرة. هل اعتادها؟ أم ملَّها؟ أم فقط يحتاج فترةً ليستعيدَ توازُنَه مرَّةً أُخرى، ثم يعود لها كما كان!

تركَها هذا اليومَ وأخبرَها بأمرِ السفر. أخبرَها أنه من الجيد لو يبتعدان في هذه الفترة. وربما يكون هذا أمرًا في صالح العَلاقة. وافقتْ على مَضَضٍ. بكتْ بعدما رحل. ودمعتْ عيناه هو الآخَر.

أراد فقط أن يتأكَّد. وأن يتيقنَ مما بداخِله قبل أن يُقدِمَ على أيِّ خُطوَةٍ أُخرى. ورحل.

***

- صباح الخير يا عم هيثم. ما لسَّة بدري!
- صباح الزفت ياعم؛ عايز إيه على الصبح؟!
- عملت إيه مع رَنَا؟
- يابني احنا في إيه ولا في إيه؟!
- مش بتطَّمِن على صاحبي الأنتيم!
- مفيش. قُلتِلها بس نبعد يومين كده فترة السفر. ونشوف الدنيا هتوصل لايه. سيبك.. خلينا نركِّز في الشغل دلوقتي.

Scanned by CamScanner

- زعَّقْ كمان زعَّقْ. رايح على فين؟

- رايح القسم يا سيدي: علشان النهاردة أول يوم هبدأ فيه الشغل الجديد بتاع الهجرة ده. بس سفر بقى عشان الشغل في اسكندرية.

- يا بختك يا عم. هتخلص الشغل. وتطلع على البحر بقى. وشَطّ إسكندرية يا شَطّ الهوا. والعَبْ .. وهوَّ على كده هيبقى كام يوم؟

- يعني: بتاع أُسبوع. عشر أيام. حاجة كده.

- تمام.. كان الله في العون سعادتَك.

- خلّيك في حالك. يلَّا سَلَام.

- سَلَام.

خرج هيثمُ من مقرّ الجهاز حاملًا كلَّ ما سيحتاجُه؛ "اللابتوب"، والأوراقَ الخاصَّةَ بالقضية. وسلاحَه. وأوراقًا وجواباتٍ قرَّرَ أن يتخلَّص منها نهائيًّا. فأحرَقها. وأحرَقَ معها ذكرياتِه القديمةَ كُلَّها.

استقلَّ سيارتَه الأوبل. أغلق الشبابيكَ كُلَّها؛ حتى لا يسمع أيَّ أصواتٍ مُزعجة. وضع "الهاند فري" في أذنيه. وأدار مُكيِّفَ الهواء. واتَّجَه إلى الطريقِ الصحراويّ.

جميلةٌ هي الأسكندريةُ في عينيه. براها كفتاةٍ مُدلَّلَةٍ. رقيقةٍ.

Scanned by CamScanner

لم يعرفْ كفَّاها سوى عزفِ الكَمانِ، والضربِ على أصابعِ البيانو؛ لتعزفَ ألحانًا يطرب لها القريبُ والبعيد. إلَّا أنه، وذاتَ يومٍ أغبرَ غارتْ منها الفتياتُ الأُخريات. لم يُرِدْنَها جميلةً كعهدِها، لم يُرِدْنَها فاتنةً. أرادوها أن تُصبحَ مِثلَهُنَّ: قبيحةً، لا طعمَ، لا لونَ، لا رائحةَ. فألقَتْ كلٌّ مِنهُنَّ ببعضِ وَسَخِها عليها. ولكن، رغم ذلك، ورغم السنين التي مرت، تأبى إلَّا أن تظلَّ هي الأجمل دومًا.

ساعتان ونصف، حتى وصل إلى الشقَّةِ التي استأجرتُها له الوزارة. شقَّةٌ مفروشةٌ لا تليق سوى برجلٍ عَزَب. موقِعُها جيِّدٌ، تُطِلُّ على البحر، وهذا هو ما تمنَّاه بالتحديد. فهواءُ البحر الذي يدخلُ صدرَك هو الأنقى دومًا.

رتَّبَ أشياءَه وملابسَه، وألقى بجسدِه المُنهَكِ على السرير، وأسلم رُوحَه لنومٍ عميق تمنَّاه منذ أيام.

***

دويُّ الصرخاتِ لا يهدأ في هذا القسم، الكثير من الأشخاص القابعين في الزنزانات، الكثير منهم مظلومون، وآخرون يستحقون الشنقَ دونَ رحمة.

دخل هيثمُ إلى القسمِ صباحَ اليوم التالي، كانتِ الحركةُ عاديَّةً، وبينما كان يستعدُ ليصعدَ الدَرَجَ إلى مكتب المأمور، سمع صُراخًا يأتي من خلفِه، ليجدَ أمينَ شُرطةٍ يصفعُ أحدَ الأشخاص المكبَّلينَ بالأصفادِ على وجهِه.

Scanned by CamScanner

- اخرس يا روح أمَّك: إنت مش قاعد في الهيلتون، وصوتَك ميطلعش لحد ما الباشا يجيلك.

- يا باشا والله ما عملت، والله العظيم ما سرقته، يا باشا والله ما عملت حاجة.

- قلتلك اخرس، بدل ما أنزّلك تحت، وأسيب عليك الحَوَش اللي في الزنزانة يطلّعوا مَيتِين أُمَّك.

اعتاد هيثمُ أن يرى هذه المواقفَ كثيرًا بحُكمِ عملِه، لم تَعُدْ تُؤثّرُ فيه، ولكنه لا يزال يحتفظ ببعض الإنسانية بداخله، فهو لا يحتملُ رؤيةَ الظُّلمِ أمامَه، لا يحتملُ رؤيةَ الدماءِ المُتناثرة، لا يحتملُ الإيذاء، أساسًا.. هو لا يعرف كيف أصبح ضابطًا!

استمرَّ أمينُ الشُرطةِ في إهانة هذا الشخص المكبَّل، ناعتًا أُمَّه بكُلِّ ما لا يليق، وهو لا يستطيع أن يُدافِع عنها حتى في سرِّه تحتَ تأثير اللكَمَات والرَّكَلَات التي يُوجِّهُها له الأمين، تردَّدَ هيثمُ: هل يتدخَّل؟ أم يذهب إلى مكتب المأمور؟ وقف أمامَ هذا المشهد، ولا يعرف: هل هذا الشخص مُذنِبٌ فعلًا، أم أنه بريءٌ ويستحقُّ أن يحصُلَ على حمايةٍ ولو مُؤقتة..

تغلَّبَ شيطانُه عليه، أكمل طريقَه إلى مكتب المأمور، صعدَ الدَّرَجَ حتى وصلَ إلى المكتب الخارجي، ليجدَ أحدَ الأُمناءِ جالسًا، والذي وقف فورَ رؤيتِه هيثمَ:

- هيثم بيه، إزَّيّ سعادتك؟

Scanned by CamScanner

- إزَّيك يا سعيد. حَدْ عند محمد بيه؟

- لا يا باشا. هوَّ مستنِّيك.

طرق هيثمُ بابَ مكتبِ المأمور، ولم ينتظرْ ردًّا، دفعَ البابَ برفقٍ، ودخل، وعلى وجهه ابتسامةٌ مُزيَّفة..

- محمد بيه، صباح الفل.

- أهلًا يا هيثم بيه، إزَّيّ أخبارك؟

- كُلُّه تمام الحمد لله، أنا بقى عايز أبدأ شغل على طول، مش عايز أضيِّع وقت، فياريت سيادتَك تدِّيني بقى فكرة سريعة عن الموضوع كده.

- تمام، اللي حصل إن جاتلي مُكالمة من مساعد الوزير، بيقول إنهم لقيوا مجموعة من السوريِّين على جزيرة (نيلسون)، إزَّاي وصلولها، دي أنا لسَّة ما أعرفهاش، ومسألتِش فيها، قوات خَفَر السواحل خَدتهُم، أكْلوهم وشرَّبُوهم، وبعدين، وزَّعوا مُعظمهُم هنا في القسم، والباقي رحَّلوهم على سجن تاني في القاهرة، وبَرْضُه مفهمتِش إيه سبب الترحيل! يعني لو على المكان مثلًا، وإن القسم مش هيكفِّي، كان مُمكِن يُحطُّوهم في أي قسم تاني في اسكندرية.. هل مثلًا عليهم شُبُهات مُعيَّنة؟ بَرْضُه ما اعرفش، لكن عامَّةً، جالي خبر إن العَشْرة اللي في القناطر هيتنقلوا لهنا كمان يومين.

- طَيِّب سيادتك ما حقَّقتُوش معاهم وعرفتوا إيه

Scanned by CamScanner

قصتهم؟

- الحقيقة لأ. ما اتطلبش مِنّنَا نحقّق معاهم. كل اللي اتطلب مِنّنَا نتحفّظ عليهم. ونبعدهم عن زنزانات المجرمين. ونعاملهم كويّس. إنتَ فاهم: دول مهاجرين مش مجرمين فيُعتَبروا ضيوف. قاعدين يومين وماشيين.

- يومين إيه سعادتك! أنا التقارير اللي جاتلي بتقول إن بقالهم سبع شهور عندكم هنا!

- ده صحيح. لأن وزارة الخارجية أول ما الموضوع وصل لها خاطبتْ مُنظّمة الهجرة الدولية. لأنها تُعتبَر المسئول الرئيسي عنهم. ويُعتبَروا تحت حمايتها. وهُمَّا بعتوا الرد من أسبوع بس. وده سبب إنهم قاعدين هنا طول الفترة دي. اللي هيحصل كالتالي: هَيِيجي مُحقّقين أجانب من دُوَل مُختلفة زَيّ ألمانيا وفرنسا والسويد. كل دولة هتبعت المحُقّقين بتوعها يحققوا مع المجموعة دي. وكل دولة هتشوف هتاخُد مين مِنهُم عندها: حسب معايير كتير تخصُّهُم هُمَّا. مالناش دعوة بيها.

- المطلوب مِنّي؟

- المطلوب مِنّك إنك هتشرِف على التحقيقات دي. هتبقى مُتواجد هنا كل يوم. من أول ما المحُقّقين ييجوا. لحد ما يمشوا. هتبقي مسئول عن كل كبيرة وصغيرة.

- حاجة تاني يا فندم؟

Scanned by CamScanner

- آه. وما تنساش. في مُترجِمة جايَّة. هتبقي قاعدة وسط التحقيق؛ بحيث لو المحُقِّقين ما فهموش الناس دي. والعكس. هيَّ تقدَر تترجِم وتسهِّل الأمور. هيبقى مطلوب مِنَّك تعدِّي عليها في الفندق اللي هي فيه. تجيبها كل يوم معاك الصبح.

- تمام يا فندم. هستأذنَك أروح الزنزانة أشوفهم.

- أكيد. اتفضل.

- بعد إذن سعادتك.

***

خرج هيثمُ من مكتب المأمور. مُنَّجِهًا إلى مكان وجود الزنزانة.

نزلَ الدَّرَجَ واتَّجه يسارًا. ليجد أمامَه مَمَرًّا مُعتِمًا..

- عَدِّيني يا بني.

- مين سعادتك؟

- أمن دولة. عدِّيني يا بني اخلص.

- تمام سعادتك. آسفين يا باشا.

يدخلُ هيثمُ هذا الممرَّ ويمشي فيه ببُطءٍ. يسمع عن يمينه أصواتًا مُختلفة؛ شتائمَ. مُزاحًا. عِراكًا.. يحدث هذا دائمًا في هذا المكان اللعين. يعرف ما يُعانيه هؤلاء. وخاصة في هذا الوقت من العام. حيث ترتفع درجة الحرارة في مِصرَ بشكلٍ مُبالَغٍ فيه منذ عدَّةِ سنواتٍ مَضَتْ.

Scanned by CamScanner

يعرف ما يشعرون به تحديدًا. فهو يجلس في مكتبه المكيَّفِ. ومع ذلك لا يُطيقُ أن تطأ قدماهُ الشارعَ بسببِ شِدَّة الحرارة. فكيف بهؤلاء الذين يقبعون في مكانٍ ضيِّقٍ ومُغلَقٍ لا يَسعُهم جميعًا؟! ولا توجد أيُّ وسائلَ تهويةٍ. فلا عجبَ أن يموتَ مِنهم مَنْ يموتَ ويمرضَ مِنهم مَنْ يمرض.

أكملَ طريقَه حتى وجدَ أمامَه سُلَّمًا. وأمينَ شرطةٍ يجلس على كرسيٍّ يعبثُ بهاتفه المحمول..

- فين زنزانة السوريين؟

- الدور الجاي سعادتَك هتلاقي ٣ زنازين. موجود في النَّص زنزانتين: واحدة بتاعة حبس الحريم. والتانية بتاعة الحريم اللي جايَّة مع السوريين. والاتنين اللي على الجنب بتاعة السوريين الرجالة سعادتك.

أكمل طريقَه مُتأفِّفًا. أراد أن يعودَ أدراجَه. أراد أن يَهرُبَ. لا يعرف لماذا ينتابُه هذا الشعورُ السيِّئُ حولَ هذا الأمر. كُلَّما مشي خُطوةً. يعود اثنتين.

أزاح عن تفكيرِه كلَّ هذا العبث. وصعد الدَّرَجَ بسرعة. وما إن صعد. حتى وجد عن يمينه زنزانةً مفتوحةً. ووجد الزنزانةَ المقابِلةَ أيضًا على نفس الوضع. وكذلك إحدى الزنزانات التي في الوسط.. والرابعة مغلقة. استغرب: فهذا ليس المعتاد في الأقسام. فالزنزانات لا تُفتح نهائيًّا. وإلا لَمَا كان في السجون أحدٌ حتى الآن.

Scanned by CamScanner

- يا أمين..

- تمام سعادتك..

- هي الزنازين دي مفتوحة كده ليه؟

- عشان دي زنازين السوريين يا فندم. سعادتك عارف إنهم مش مجرمين يعني. فالمأمور أمر نفتح الزنازين لحد معاد النوم. بيتمشَّوا في الطرقة هنا شوية ويشمُّوا هوا. بدل الكتمة والخنقة. وعلى النوم بنقفلها. وبقالنا سَبَع شهورع الوضع ده.

- طيِّب روح إنتَ..

توقَّفَ مكانَه ولم يتحرك. لم يعرف ماذا يجب أن يفعل الآن. وبينما هو غارقٌ في تفكيرِه. وجد من يُمسِكُ ببنطالِه ويجذبُه:

- عمُّو إنتَ مين؟

- إنتَ اللى مين؟!

- أنا عمار.

- وأنا يا سيدي اسمي هيثم.

- شو جاي تعمل هون؟

- إنتَ مش عايز تمشي من هنا؟

- إيْ.

- طيِّب أنا جاي أطلَّعك من هنا..

Scanned by CamScanner

وبينما هو يتحدَّثُ مع هذا الطفل الصغير، وجد نفسَه مُحاطًا بأكثرَ من عشرة رجال، لم يعرف من أين أتوا فجأة. ترك عمار الصغير، ووقف ليتأمَّلَ وجوهَهم، نظر إليهم واحدًا تلو الآخَر، تأمَّلَ أرواحَهم التي أكلتْ منها الحربُ الكثيرَ، وأماتتْ منها أكثر، وتأمَّلَ وجوهَهم، التي لا زالت تحتفظُ بملح البحر، الذي غدر بهم، وأتى بهم إلى هنا.

انتظرَ أن يتحدث أيٌّ منهم، إلَّا أنهم جميعًا وقفوا صامتين، قرَّرَ أن يشُقَّ هو هذا الصمتَ؛ في مُحاولةٍ لتلطيف الأمور، أو كما تُقال في الإنجليزية "to break the ice"، فقال مُوجِّهًا كلامَه لهم جميعًا:

"أنا المقدِّم هيثم عبد الرحمن، هبقى المسئول عن الحالة بتاعتكم، وعن التحقيقات اللي هتتم معاكم".

فردَّ عليه أكبرُهم سِنًّا:

- أهلِينِ وسَهْلِين، مين اللي راح يحقِّقْ مَعْنا؟

- مُحقِّقِين من دُوَل مُختلفة؛ ألمانيا وفرنسا والسويد، يعني أهي مُحاولات علشان نِفُكّ الأزمة دي.

- الله يهوِّنها.. نِحْنَا صارلنا ٧ شهور ما شِفنا ضَوّ الشمس؛ من أول ما هربنا من بلدنا، ولحد ما وصلنا لهون، إنتَ راح تطالعنا من هون؟

- والله يا حاج هعمل اللي أقدر عليه، إحنا كُلّنا مُجرَّد

Scanned by CamScanner

أسباب مش أكتر.

- ونعم بالله.

- ما اتعرفتّش بالشباب..

- هاد يا سيدي محمد، ومعاه هون مَرَتُه و ابنه، موجودين هون بزنزانة الحريم، وهاد إسلام، وهاد يَزِيْد، ومَرَتُه موجودة جُوَّة، وهاد عبدالله، وهاد زياد، وهاد يونس، وأخته موجودة جُوَّة كمان، وهاد مازن، وجُوَّة مَرَتُه وبنته، والصغير هاد بِكُون عمَّار، إنتَ تعرَّفتْ عليه، بس عمَّار هاد مريض، مشاكل في الكلى، ولو ما سوَّاش غسيل كلى كمان كام يوم حالته بتتدهور كتير، حط هاد فبالك بس، والباقي بتعرفوهن بالتحقيق.

- اتشرَّفتُ بحضرتَك جدًّا يا أستاذ...

- صهيب.

- اتشرَّفتُ بيك يا أستاذ صهيب، التحقيقات هتبدأ من بكرة الساعة ٩ بإذن الله، ياريت تصحوا بدري، وتبقوا مُنتظِرين.

- طيِّب بِدِّي مِنَّك طَلَب؛ بِدُنَا نبعت نشتري معجون حلاقة وشفرة حلاقة؛ مِنْشَان نحلق دقنا، منشان شكلنا يكون حلو وقت التحقيق؛ لأنُّه هِيْك شكلنا تقول مساجين.

- حاضر أنا هقولُهُم يبعتوا ليكم الحاجات دي.

- طيِّب استنَّى خُدْ مصاري.

Scanned by CamScanner

- اعتبرها وصلت يا حاج صهيب. أشوفكم بُكرة بإذن الله. وبالنسبة لموضوع عمَّار، أنا هقول لمأمور القسم وأوصِّيه. ومش هنسى، ما تِقلَقْش.

وقف معهم قليلًا. وتحدَّثوا لبضعة دقائق في أمورٍ مُختلفة. لم يتطرق لِما حدث لهم، أو ما يدور في سوريا، أو غيرها من الأمور التي بالطبع تُؤلِمهم. وتُثيرُ لديهم ذكرياتٍ ربما لا يَوَدُّون حتى أن تأتيَهم في أحلامِهم.

همَّ بعدها أن يرحل، فألقى عليهم جميعًا السلام. وما إن التفتَ حتى أتاه صوتٌ صغير:

- عمُّوا

- نعم يا عمَّار.

- مُمكن تجيبلي شي حِلو المرة الجاية؟

- حاضر، عينيَّا الاتنين..

ثم طبع علي جبينه قُبلةً، ورحل.

***

جلس هيثمُ أمامَ مِقْوَدِ سيارته. وأدارَ المُحرِّكَ. ولكنه ظلَّ واقفًا مكانَه. كان يُفكِّرُ فيما حدث. وما كان من حياته السابقة.

يمتلك هيثمُ قلبَ عازفِ كمان، أو عازفِ بيانو، أو رسَّامٍ أو شاعر. فأخلاقُه وتصرُّفاتُه أبعدُ ما تكون عن كَونِه ضابطَ شُرطةٍ

Scanned by CamScanner

ويعملُ في جهاز الأمن الوطني: لِما هو معروفٌ عنهم من قسوة وشِدَّةٍ في التعامُل مع الجميع. ربما لم تكن هذه غلطتَه من الأساس، قد يتحمَّلُ جزءًا صغيرًا من الخطأ، ولكن، بلا شك إن القَدْرَ الأكبرَ يقعُ على عاتقيه. أحاطتْه الذكرياتُ من كل جانب، فلم يجدْ منها مهربًا، وعاد للوراء أعوامًا كثيرة.

***

- هيثم، أنا قدِّمتِلَك في الشرطة خلاص يا حبيبي، وإن شاء الله هتتقبل.

- يعني إيه يا بابا قدِّمْتِلي شرطة؟! أنا مش عايز أدخل شرطة!

- هو بمزاجَك؟! أنا من زمان وأنا مستنِّي اليوم ده، وإنتَ عارف كويِّس.. مالَك مِتفاجئ كده ليه؟!

- يا بابا، على الأقل كنت تاخُد رأيي، تستشيرني، تسألني نفسي في إيه، إنما ما تلغينيش بالطريقة دي!

- اللي قُلتُ عليه هيتعِمل، أنا خلاص كلِّمْتُ مُدير الكُلِّية، واعتبر نفسَك بقيت طالب في كلية الشرطة، وانزِلْ احلق شعرَكْ ده بَدَل ما إنتَ شَبَه الصيَّع والبلطجيَّة كده، كُلَّها أربع سنين وتبقي حضرة الظابط.

تَرَكَ والَده، وهربَ إلى غُرفتِه، جلس على سريره، ولم يخرجْ منها، ولم يتحدَّثْ إلى أيِّ شخصٍ طوالَ أسبوعَين كامِلَين، حاولتْ

Scanned by CamScanner

أُمَّه كثيرًا أن تُهوِّنَ عليه الأمر، ولكنها تعرف جيدًا أنه لا حيلةَ لها أمامَ والدِه، حتى هو نفسُه، لا حيلةَ له أمامَه؛ هذا الشخصُ العنيدُ، الذي قضى عُمُرَه كُلَّه يخدم في جهاز الشرطة، ولم تَجِدِ الرحمةُ في قلبِه مَوضِعَ قدَم، كان رجلًا عنيفًا للغاية، اعتاد أن يضرِبَ زوجتَه، كانت ترجوه ألَّا يضرِبَها أمامَ هيثم، إلا أنه لم يستمعْ لتوسُّلاتِها، لم يكنْ يُحبُّ هيثمَ حُبَّ الوالدِ لولدِه، بل كان يُحِبُّ تسلُّطَه عليه، كان يرى فيه نفسَه، يرى قطعةً منه تسير على قدمين، هكذا كان هيثمُ بالنسبة له، لم يُفكِّرْ يومًا في أن يحتضنَه، أو أن يصطحبَه للنادي ليلعبا سويًّا مثلا، عندما كبر قليلًا، لم يصطحبْه يومًا إلي "الجيم" ليتمرَّنا سويًّا، لم يذهبْ إليه في وقتِ ضِيقٍ ليسألَه ماذا به، كلُّ هذه الأمورِ لم تكنْ لتشغلَ بالَه على الإطلاق، كلُّ ما يهمُّه هو أن يتبع النظام، وأن يسير على الخط المرسوم له بعناية ودقة فائقتين، هذا هو كلُّ ما كان يهمُّه، أمَّا أحلامُه وطموحاتُه ومُستقبلُه الذي رسمه لنفسِه منذ أن كان طفلًا، كلُّ هذا لا يهمُّ أمامَ رغبةِ أبيه الجامحةِ في أن يراه ضابطًا، لم يكتفِ بهذا فحسب، بل سعى جاهدًا، وبذل كلَّ ما استطاعَ كي يعملَ في الحراسات الخاصة، إلا أنه رُشِّحَ لأمن الدولة حينها، ولكن أباه لم يغضب، فهذا أفضلُ بكُلِّ تأكيد.

لا يعرفُ هل سَامَحَ والدَه، أم لا، هل تناسى أنه دَمَّر أحلامَه التي طالما عاشها في مُخيِّلَتِه، أم لا..

اكتشفَ بعدَ فترةٍ أنه لم ينسَ، ولم يُسامِح، وظلَّتْ كُلِّيَّةُ

Scanned by CamScanner

الفنونِ الجميلةِ حُلُمًا جميلًا يُراوِدُه من حينٍ لآخَرَ في أوقاتِ فراغِه.

ولذلك كان قرارُ هيثمَ الأول، بعد أن تخرج من الكُلِّيَّةِ وأصبحَ مسئولًا عن نفسه: هو أن يلتحِقَ بإحدى الدورات التي تَعقِدُها كُلِّيَّةُ الفنون، فذهب إليها وتقدَّمَ إلى الدورة، واختار ميعادًا يُمكِنُ أن يتوافقَ مع عملِه بنسبةٍ كبيرةٍ.

التحق هيثمُ بتلك الدورة، كانت تحتوي على خليطٍ من الشباب والبنات، من جميع الأعمار، لم يُخبرْ أحدًا عن عمله الحقيقي، فهو يعرف جيدًا، أن هذه الفئة تحديدًا، لديها حساسيَّةٌ تجاه ضباط الشرطة، هذه الفئةُ التي تُسمَّى (المثقفين)، أو كما يُطلِقونَ على أنفُسِهم، وهي التي، على الأقل، على إطِّلاعٍ بالأحداث السياسية الراهنة، وبما يحدث في الداخل والخارج، وبالتالي، فرجالُ الشُّرطةِ ليسوا من الفئة المحبَّبَةِ بالنسبة لهم. لذلك، أراد هيثمُ تجنُّبَ الدخول في أيِّ مُهاتراتٍ غيرِ مُفيدة، هو لا يُريدُ سوى أن يُتقِنَ الرسمَ، فقط لا غير.

كان تفوُّقُه لافتًا، حتى إن مُعلِّمَه طلب مِنه أن يُساعِدَه في بعض الأعمال، ولكنه اعتذرَ بلباقة.

كان يُوازِنُ بينَ عملِه ودروسِ الرسم باقتدارٍ تام، حتى علِمَ والدُه بالأمر ثارَ وغضِبَ وأقسمَ عليه أن يترُكَ هذه الدروسَ، وأن يهتمَّ بعملِه فقط، ووصلَ الأمرُ إلى أن ضربَه، مِمَّا أغضب هيثمَ وجرحَ كرامتَه كثيرًا، ولحظتها، قرَّرَ هيثمُ تركَ المنزل.

Scanned by CamScanner

مكث عند صديق طفولته لمدة شهر تقريبًا. وكانت المحاولاتُ جاريةً لإصلاح ما أفسده الأب. ولكنَّ هيثمَ كان قد اتخذ قرارَه:

لن يخضعَ له بعدَ الآن.

لم يكنْ هيثمُ يهتمُّ إلَّا بأُمِّه؛ فهي الشخص الوحيد الذي لا يستحقُّ مِنه ذلك. وهي الوحيدة التي تناساها الجميعُ في خِضَمِّ كُلِّ هذه المُشكلات. ولذلك، كان هيثمُ يزورُها يومًا بعدَ الآخَرِ أثناءَ غيابِ أبيه عن المنزل، ثم يرحل قبل أن يأتي.

مرَّتِ الأيامُ ثقيلةً، حتى اتصلتْ به أُمُّه ذاتَ يومٍ وأخبرتْه أن أباه في المُستشفَى. ذهب إليه هيثمُ مُسرِعًا، ومكث معه في المُستشفَى عدَّةَ أيامٍ حتى استعادَ عافيتَه، وعاد معه إلى المنزل؛ لتعودَ الأمورُ لسابقِ عهدِها. وقد شَهِدَ هيثمُ بعضَ التغيُّراتِ الطفيفةِ في شخصيَّةِ والدِه، ولكنها كانت في كل الأحوال أفضلَ ممَّا كان عليه في السابق.

عاد هيثمُ إلى حضور الدورات التدريبية مرةً أُخرى، وفي أحدِ الأيَّام، وبعدَ أن انتهى، وبينما كان يُلمْلِمُ أدواتِه، وجدَ أمامَه فتاةً جميلةَ المظهر، أنيقةَ المَلبَس، على وجهِها ابتسامةٌ نَضِرَةٌ، فقالت:

- مساء الخير.
- مساء الفُلّ.
- أنا نيرمين.
- آه آه عارف، أهلًا وسهلا.

Scanned by CamScanner

- أهلًا بيك. أنا بس لاحظت غيابك كام يوم، وللأسف حاولتُ أعرف رقمَك من أيّ حَدٌ. بس ملقِتُش حَدٌ معاه رقمَك. خير إن شاء الله؟

- كُلّ خير طبعًا. والدي بس كان تعبان شويَّة. فكُنتُ لازم أبقى معاه.

- ألف سلامة عليه. يارب يكون بقى أحسن.

- بقى أحسن كتير.. طيِّب تحِبّي نشرب قهوة في أيِّ مكان، بَدَل وقفة الشارع دي؟

- مُمكِن نشرب كابوتشينو.

كانت نيرمينُ هي أول دقّةِ قلبٍ داخلَ هيثم. كانا عُصفورَين صغيرَين. كلٌّ مِنهما في مُقتَبَلِ حياتِه. هو في بدايةِ عملِه في الشُّرطةِ، وهي في السنة النهائيّة من الكُلّيَّة.

كانا يتقابلانِ كثيرًا. وتطوَّرَتِ الأمورُ بعدَ ذلك ليتقابلا في أوقاتٍ بعيدةٍ عن أوقاتِ دروسِ الرسم. كانا يتحدّثانِ في الهاتف كثيرًا. مثلَ المُراهقين تمامًا. أحيانًا يسهران. وأحيانًا يكون هيثمُ في "نوبَتجيَّةٍ" في القِسم. فيتحجَّجُ حتى لا يتحدثا. حتى إنها. في مرحلة ما. ثارتْ بداخلِها الشكوكُ أنّه يُحادِثُ فتاةً أُخرى غيرَها. ومع ذلك. لم يُصارِحْها بحقيقةِ عملِه.

وبينما كانا يتمشّيان في أحد شوارع وسط البلد. اعترض طريقَهما فجأةً رجلٌ في الخمسين من عُمُره. بمجرد أن رأى هيثم.

جرى ناحيتَه، حتى ارتعبتْ نيرمين، وظنَّتْ أنه يُريدُ بهما أذىً، وتوقَّفَ فجأةً، أمامَ هيثم، وانتفض جسدُه مُؤدِّيًا تحيَّةً عسكريَّةً، قائلا:

- هيثم بيه، إزَّيْ سعادتَك، ما تؤمرناش بحاجة سعادتك؟

ارتبك هيثم، وتمنَّى لو انشقَّتِ الأرضُ وابتلعتْه حينئذٍ، ثم نظر إليه وهو يصرِفُه:

- لأ يا سعيد شكرًا، شوف إنتَ رايح فين.

انصرف الرجلُ إلى حالِ سبيلِه، بينما توقَّفَتْ نرمينُ ولم تتحرَّكْ، طلب منها أن تُكمِلَ المسير، ولكنها رفضتْ، ووقفتْ في وَسَطِ الشارعِ وهي تُطالِبُه بتفسيرٍ لِما رأتْه.

أخبرَهَا بالأمرِ كُلِّه، وأن سعيدًا هذا أمينُ شُرطةٍ في القِسم الذي يعمل فيه، وأخبَرَها عن مأساةِ حياته من الألف إلى الياء.

عاتبتْه لأنه أخفى عليها الأمر، ولكنها سرعان ما سامحتْه، مع تحفُّظِها الوحيد أن أخلاقه وتصرُّفاتِه ليسَتَا لضابطٍ شُرطَةٍ على الإطلاق.

نَمَتْ بداخل كُلٍّ منهما قصةُ حُبٍّ هادئةٌ وجميلةٌ، حَلَمَا ببيتٍ صغيرٍ، وطفلين، حَلَمَا بحياةٍ حالمةٍ، رسَمَاها معًا على الورق، وفي خيالهما، لم يترُكَا تفصيلةً واحدة، رَسَمَا كلَّ شيء، آمِلَيْن أن يُمهِلَهُما القدرُ فرصةً لتحقيقِ كُلِّ ما حَلَمَا به.

ظلَّا معًا سِتَّةَ أشهُر، وفي نهاية الشهر السادس، قرَّرَ هيثمُ أن يتقدَّمَ لخِطْبَتِها.

Scanned by CamScanner

وفي يومٍ، طلب منها أن تتأنَّقَ وترتديَ أجملَ ما عندَها، وبالفعل، تقابلا. وكان هيثمُ ينتظرها على الناحية الأُخرى من الطريق، وبينما هي تضعُ قدمَها لتعبُرَ إليه، جاءتْ سيارةٌ مُسرِعةٌ، فقد صاحبُها السيطرةَ عليها، ليُفقد هيثمَ حُبَّ حياتِه الأولَ، ويطعنَ قلبَه بسكّينٍ باردة، لتصبحَ حياةً بلا معنًى، بلا حُبٍّ، بلا نساءٍ، بلا أيِّ مُتعةٍ سوى العمل.. حتى جاءتْ رَنَا.

***

استفاق هيثمُ على صوت عسكريٍّ القِسم، وهو يطلبُ مِنْه أن يتحرَّكَ بالسيارة؛ لتأتيَ سيارةُ الترحيلات.

تحرَّكَ هيثمُ مُتَّجِهًا إلى الشقَّةِ التي يمكث فيها، صعد إلى شقَّتِه، وغيَّرَ ملابسَه، وطلب طعامًا من أحد المطاعم القريبة، وبينما هو يشاهد مُباراةَ كُرةِ قدمٍ، تذكَّر أنه سيُقابِلُ المُترجِمَةَ في الغد، كان عليه أن يُهاتِفَها منذ ساعتين، ولكنه نسي أمرَها تمامًا، رفع سماعةَ هاتفِه وطلبها، كانت تضع "Call Tone" (أجمل يوم) لـ(مُحمَّد حَمَاقِي)، يُحبُّ هذه الأغنيةَ كثيرًا؛ تُشعِرُه بطاقةٍ لا مثيلَ لها، تُشعِرُه برغبةٍ غيرِ عاديَّةٍ في أن يرقصَ، حتى وإن كان في مقرِّ عملِه، رنَّ الهاتفُ كثيرًا، حتى ردَّتْ عليه أخيرًا:

- مساء الخير آنسة سلمى معايا؟

- أيوة يا فندم.

- المقدّم هيثم معاكي.

Scanned by CamScanner

- أهلًا وسهلًا. مستنيَّة مُكالمة حضرتَك من بدري.

- بعتذر عن التأخير. بس كان في شوية ظروف كده. أنا بس منصل عشان أتفق مع حضرتك على بكرة؛ علشان المفروض أعدِّي آخدِك.

- تمام. هتعَدِّي عليَّا الساعة كام؟

- ٨ بإذن الله.

- ٨ بالدقيقة هتلاقيني قُدَّام باب الفندق.

- تمام. اتفقنا. صحيح.. حلوة الـ Call Tone بتاعتك. بحبها أوي.

- وأنا كمان. أغنية مليانة تنطيط ورقص كده.

- بالظبط. يالَّا. أشوفِك بكرة.

- أوك. سلام..

- سلام..

بعد أن أنهى مُكالمتَه مع سلمى، اتصل بوالدتِه ليطمئنَّ عليها، ثم اتصل بصديقِه. وأجرى عدَّةَ مُكالماتٍ أُخرى غيرَ مُهمة، فقط لإضاعة الوقت المُتبقِّي حتى موعد النوم. وعند الساعة الثانية عشرة، اتجه إلى سريره، وغاب في ملكوتٍ آخر.

***

Scanned by CamScanner

أصواتُ صرخاتٍ عاليةٍ في أرجاء القصر. الكثيرُ من الحرس يُؤمِّنونَ المكانَ بكلِّ قوَّةٍ يأتي من بعيدٍ رجلٌ يرتدي ملابسَ فخمةً للغاية، وحولَه حاشيةٌ تَسُدُّ عينَ الشمس. يقفُ الحارسُ أمامَ بابِ العرش، ليُناديَ بأعلى صوتِه: "سلطان البلاد المعظَّم!"

يَفتحُ الحارسُ البابَ ليتقدَّم السلطانُ ويجلسَ على العرش، يعرض عليه أحدُ وزراءِه بعضَ المشكلاتِ، وينظر في شئون العباد والبلاد حتى يأتيه أحدُهم ويميلَ على أذنيه، ليهمسَ له بأمرٍ ما، يأمرُ الملكُ بإدخالِه مَنْ بالباب.. فإذ بـ(هيثمَ) يدخلُ بقوَّةِ الدفع، وهو مُكبَّلُ اليدين، وخلفَه حارسان ضخما الحجم، يدفعُه أحدُهما على ظهره ليركعَ على ركبتيه، ينظر إليه الملك مَليًّا، ويسأل:

- ما جريمتُه؟

فردَّ الحارسُ قائلا:

- يا سيدي رأى حقًّا ولم ينصرْه، ورأى ظُلمًا ولم يرفعْه، ورأى قاتلًا يسير على قدميه طليقًا، ولم يُوقِفْه.

ثم نظر الملكُ إليه طويلًا، ثم سأله:

- أحقًّا ما يقولون؟!

ينظر إليه هيثمُ دونَ تصديقٍ ودونَ فَهم. مَنْ هؤلاء؟ ومَنْ هذا؟ ولماذا هو مُقيَّدٌ هكذا؟ وكيف جاء إلى هنا أساسًا؟! ولكنه لا يجد حلًّا غيرَ أن يَرُدَّ؛ خِشيَةَ أن يقتلوه:

- حضرتك أنا ما اعرفش مين الناس دي، وأنا هنا بعمل إيه

أساسًا. وحضرتَك أصلًا مين؟!

ليدفعه أحدُ الحُرّاسِ بقَدَمِه بقوّةٍ. ليصطدمَ وجهُه بالأرض. وتسيلَ الدماءُ من فمه:

- تحدَّثْ إلى السلطان بأدبٍ أيُّها الحقير!

- لا تضربوه. هل حقًّا ما يقولون؟

- والله حضرتَك أنا مش فاهم في إيه أساسًا. طَبْ أنا مُتْ وبتحاسب؟ ولّا إيه بالظبط؟

- حسنًا. لم تتركْ لي خيارًا. فمَنْ رأى حقًّا ولم ينصرْه. ورأى ظُلمًا ولم يرفعْه. ورأى قاتلًا يسير على قدميه طليقًا ولم يُوقِفْه. لا أجازيه سوى بالموت.

يجرُّه الحارسان من ذراعيه. وهو يصرخُ. ويتوسلُ إليهما أن يتركاه. لا يستمعان إليه. ويُغلَقُ البابُ خلفَهم.

*** جرب بيتا الكتب

استيقظ فزعًا. فرك عينيه: ليتأكّدَ أنه في غرفته. وأن كلَّ شيءٍ على حاله. كانتِ الشمسُ قد أشرقتْ. فأدرك أن عليه التحرُّكَ سريعًا. نظر في "الموبايل". فوجد الساعةَ تُشيرُ إلى ٧:٣٠. كان عليه أن يُسرِعَ حتى لا يتأخرَ عن مَوعدِه مع سلمى. ارتدى ملابسَه في عشرِ دقائقَ. وانطلق بسيارته إلى الفندق الذي تمكث فيه. ومع ذلك. لم يَكُفَّ عن التفكير في الحلم الذي راوده.

Scanned by CamScanner

وصل إلى باب الفندق الذي نزلت به سلمى في الثامنة وخمس دقائق. ليجدَها تنتظرُه في رُدهة الفندق.

- حضرتِك هنا من بدري؟

- أنا هنا من ٨ بالظبط.

- آسف جدًّا على التأخير؛ السكّة بَس زحمة..

فضحكتْ، وهي تعرفُ أنه يكذب، وقالت:

- لا ولا يهمك، هي دايمًا السكّة بتبقى الحِجّة.

ابتسم لها وتحرّكا، ركبا السيارة، وتحرّكَ هيثمُ إلى مقرّ القِسم الذي يقبعُ فيه هؤلاء اللاجئون.

وبينما هما في الطريق، أراد أن يفتحَ مجالًا للحديثِ معها؛ حتى يكسِرَ الملَلَ الذي تُسبّبُه زحمةُ الطريق، فبادرها قائلا:

- أنا بحب الكورنيش أوي، رغم إنه ساعات بيبقي زحمة زَيّ ما إنتي شايفة، بس بالليل حاجة تانية.

- في الشتا بَسّ يا سيادة المُقدّم.

- عندِك حق؛ في الصيف اسكندرية بتبقى عبارة عن شوية سليبّات ماشية في الشوارع.

ضحكتْ بشدّةٍ عندما تفوّهَ بجُملَتِه الأخيرة، وهي تقول:

- دمّك خفيف على ظابط شرطة، عفوي وتلقائي كده.

Scanned by CamScanner

- ودي حاجة كويِّسة؟ ولَّا حاجة وِحشة؟

- لأ حاجة كويِّسة.

- وإنتي كمان شكلِك اجتماعيَّة جدًّا.

- ودي حاجة كويِّسة؟ ولا حاجة وِحشة؟

والله بالنسبة لأغلب رجَّالة المُجتمَع المصري هتبقى وِحشة. بَسْ بالنسبالي أنا كويسة؛ لأني مش من الأغلبيَّة دي. المُهم قوليلي: عارفة حاجة عن الناس اللي هتشتغلي معاهم دول؟

- أنا ما بَطْلَعشْ شُغل غير لمَّا بقرأ عنُّه كويِّس أوي قبل ما أروح. إلَّا المرَّة دي؛ لأن الموضوع جِهْ فجأة. بَسْ من الحاجات السريعة اللي قريتها على النت اكتئبتُ من قبل ما أروح. الناس دي حالتها صعبة أوي. اتخطُّوا في ظروف. لا اختاروها ولا عايزينها. ومُضطرِّين يتعاملوا معاها. يعني عايزة أقولَّك إني من ساعة ما اتعرض عليَّا الشُّغل ده ووافقت عليه. وتفكيري تقريبًا اتغيَّر في نقطة مُعيَّنة.

- اللي هيَّ؟

- اللي هيَّ أنا بَزْعَل ليه وبتنَكِّد ليه على أي مُشكلة عندي؟ في حين إني لو قارنت نَفْسي بالناس دي. هكتشِف إني مُرفَّهة. وعايشة عِيشَة. ناس كتير تحلم بيها.

- آه.. يعني نظام "اللي يشوف بَلَاوِي الناس. تهون عليه بَلْوِتُه".

Scanned by CamScanner

- حاجة زَيّ كده.

ساد الصمتُ بينهما حتى وصلا إلى القِسم. دخل هيثمُ، وتَبِعَتْه سلمى. قدَّمَ له العساكرُ التحيَّةَ وكذلك أمناءُ الشُّرطةِ. استغربتْ سلمى من الطريقة التي يُعاملونه بها؛ فهي لم تدخل قِسمَ شُرطةٍ من قبل، وكان كلُّ شيءٍ بالنسبة لها جديدًا تمامًا.

وبينما كانت سلمى تُبادِرُ بصعودِ الدَّرَجِ خلفَه، إذ بها ترى أمينَ شُرطةٍ يَجُرُّ أحدَ المحبوسين من شَعرِه، وهو يَسُبُّه بأُمِّه. لم يكنْ هذا المنظرُ مألوفًا بالنسبة لها. فبالنسبةِ لعقلِها، وما تعلَّمَتْه، وما تعرفُه في الحياة، هذا تصرُّفٌ همجيٌّ ووَحشيٌّ، لا يَصْدُرُ إلَّا عن إنسانٍ غيرِ سويٍّ، مريضٍ نفسيًّا. تجرَّدَتْ مِنه كلُّ الصفات التي تربطُه بهذا الاسم. فما كان مِنها إلَّا أن اتجهتْ نحوَ الأمين، وهي تصرخ فيه؛ كي يترُكَه.

أمَّا بالنسبة لأمين الشرطة، فهذا هو الطبيعيُّ، وهذا ما يفعلُه كلَّ يوم. هذا هو ما تعلَّمَه، وما لا يعرفُ غيرَه في الحياة. فما كان مِنه إلَّا أن سَبَّ سلمى بلفظٍ خَدَشَ حياءَها. فردَّتْ عليه. فأسقط أمينُ الشُرطةِ هذا المتهمَ أرضًا، ورَكَلَه بقدمه في بطنِه، واتجه نحوَ سلمى وهو يرفع يَدَه لضربِها على وجهِها: بتشتميني أنا يا و****. ليجدَ فجاةً هيثمَ أمامَه من اللا مكان، وهو يُمسِكُ بيَدِه ويدفعُه بعيدًا عنها، وهو يصرخ به:

- إنتَ اتجننتْ بروح أُمَّك ولَّا إيه؟!

Scanned by CamScanner

- آسف يا هيثم باشا؛ معرفش إنها معاك.. بس هي شتمت.

- ومحدّش بيعامِل الناس كدہ!

كان صوتُ الصُراخ قد وصل إلى مأمور القِسم، الذي هرول إلى مكان تلك المعركة الصغيرة؛ ليكتشف الأمر. حاول تَهدِئَةَ الأمور بين هيثم وأمينِ الشُرطةِ وسلمى. بعدئذٍ، صعد هيثمُ ومعَه سلمى إلى الدور الثاني؛ حيث المكانُ الذي سيجري فيه التحقيق.

أَمَرَ المأمورُ أمينَ الشُّرطةِ أن يلحقَ به إلى مكتبِه، دخلا المكتبَ، فوقف الأمينُ أمامَه، وجلس المأمورُ على كُرسيِّه، وأسند ظهرَه على الكُرسيِّ، وقال:

- مالَكْ بقى؟ عامِل دَوْشَة ليه؟ مش قُلتٍ نعدّي اليومين دُول على خير؟!

- يا باشا سعادتَك ده جاي يعلّمْنا الأدب من أوّل وجديد، ولا هوّ لا مؤاخذة سعادتَك جاي يِترِسِم علينا قُدّام الآنسة اللي معاه دي؟ ولّا مَحدّش عارف إن كانت آنسة ولا.. الله أعلم بقى.

- اتعِدِل وإنتَ بتتكلّم واحتِرم نفسَك، إنتَ اتهبلتْ؟!

- آسف سعادتَك، والله ما أقصُد.

- قُلتْ نعدّي اليومين دول على خير، هُوَّ حِمَقِي، ومش بتاع عنف ومَدّ إيد، وما اعرفش ده ظابط إزّاي أساسًا. بس مُضطرّين

Scanned by CamScanner

نستحمِلُه. أمن وطني يا سيدي نِشِيلُه على راسنا اليومين دول وبعد كده يحلّها حلّال. مفهوم؟

- تمام سعادتك.

كانت سلمى عصبيّةً جدًّا بعدَ الموقف الذي تعرَّضتْ له. طلب هيثمُ من العسكريِّ المُرافِقِ له أن يُحضِرَ لها كُوبًا من العصير.

حاوَلَ أن يتحدَّثَ معها. وهو يشرحُ لها أنه يَتفهَّمُ تمامًا سببَ غضبِها. ولكنه حاول أن يشرح لها. في المُقابِل. طبيعةَ النظامِ داخلَ أقسامِ الشُّرطة. وأن هذا النظامَ هو السائدُ منذ زمنٍ بعيد. وأنه ليس لديه أيُّ أملٍ في أن يتغيرَ على الإطلاق.

- بُصّي يا سلمى. النظام ده من سنين السنين. خناقتِك دي صدَّقِيني لا فَرَقِتْ ولا هتفرِق. هُمَّا بَسْ سكتوا علشان إنتي معايا. عارفة لو لوحدِك. ما كُنتيش طلعتي من هنا على رجليكي. وإنتي عارفة كده أكتر مِنّي. أنا حاسس وفاهم كُلّ حاجة جوّاكي. بس النظام ده عشان يتغيَّر عايز تغيير من تحت. من تحت أوي: عارفة الزرعة الفاسدة. اللي كُلّ ما تطرح زَرع. يطلع بايظ. بيعملوا فيها إيه؟! بيقلعوها من جُذُورها. لحد ما يبقاش ليها أيّ أثر. وبعدين ينضّفُوا مكانها. ويحُطُّوا بذور جديدة على نضافة. ده اللي المفروض يحصل. غير كده. يبقي إحنا بنادّن في مالطة.

لم يَكَدْ يُنهي جُملَتَه. حتى دخلَ محمود. بعد أن طرقَ الباب.

- صباح الفُلّ هيثم بيه.

Scanned by CamScanner

- أهلًا محمود، صباح الفل، ده يا ستي كابتن محمود، أمين الشُّرطة اللي شغال تحت إيدي، وراجلي ودراعي اليمين، تقدري تعتمدي عليه في عدم وجودي، وبيدُرِس كمان عشان عايز يبقي ظابط، وأهو قرَّب يمتحن ويرَكِّب الدبابير وما اعرفش اتكلِّم معاه..

- العفو يا باشا تلامذِتَك، الوفد الأجنبي وصل، وطالعين حالا.

- تمام، دخِّلهُم الأوضة التانية، وإحنا جايِّين.

قام هيثم واتجه مع سلمى ومحمود إلى الغرفة المجاورة. كان هناك شخصان يجلسان. عندما دخلوا، قاما لتحيتهم. عرَّف كلٌّ منهما نفسَه: كان الأولُ اسمُه (جان) وهو ألمانيٌّ الجنسية، والثانية اسمُها (دارسي) وتعملُ معَه في نفس المنظَّمة، والدتُها بريطانيَّةٌ ووالدُها ألمانيٌّ، خليطٌ غريبٌ بعضَ الشيء، ولكن، نَتَجَ عنه فتاةٌ ذكيَّةٌ ورائعةٌ وجذَّابة، فتاةٌ يُمكن أن يُقالَ عنها أنها مُتكامِلة.

قدَّم هيثمُ نفسَه، ومحمود، وكذلك فعلتْ سلمى، كانا يتحدثان إنجليزيَّةً ركيكةً بعضَ الشيء. ومُهمَّةُ سلمى: أن تقومَ بالترجمة بينهما وبينَ الأشخاصِ الذين سيتمُّ التحقيقُ معهم.

- طيِّب تمام أوي، دلوقتي كُلِّنا عرفنا بعض، ياريت نبدأ نستعد عشان هنبدأ نجيب الناس من الحجز. محمود، مين أول حَدْ معانا؟

Scanned by CamScanner

- معانا يا فندم واحد اسمه مازن، وبنتُه اسمها عائشة، ومراتُه اسمها ريم.

- تمام، هاتهوم لي من تحت.

- تمام سعادتك.

خرج محمود مُتَّجِهًا إلى الحجز؛ ليأتيَ بالأُسرة الأولى.

***

اتجه محمود إلى الحجز، صعد الدَّرَجَ ليَمُرَّ بالعنابر، حتى وصل للعنبر الذي يمكث فيه هؤلاء القوم.

- فين مازن يا جماعة؟

جروب بيت الكتب

- إيه أنا.

- إنْدَه مراتَك وبنتَك وتعالى معايا.

- وين راح تاخُدنا؟!

- ما تقلقش.

تحرك مازنُ وريمُ وعائشة، وصلوا إلى غرفة التحقيق، ألقى مازنُ السلامَ بابتسامةٍ هادئة، حيَّاهُ هيثمُ وسلمي، وكذلك (جان) و(دارسي)، كان مازنُ وزوجتُه مُتوتِّرَيْن للغاية، وقد بدا هذا جليًّا؛ من حركة الأصابع المستمرة، وفرك الأيدي بعضها ببعض، بدأت سلمى في ترجمة التحيَّةِ المُتبادَلَةِ في خُطوَةٍ لبَدْءِ دورِها في هذه القضية.

Scanned by CamScanner

فقال له (جان) بإنجليزيّةٍ ركيكة:

- اتفضَّل اقعُد..

ثم نظر إلى زوجتِه، وطلب منها أيضًا الجلوس، ثم مَدَّ يَدَه في جيب قميصه، وأخرج قطعةَ حلوى صغيرةً ناولها لعائشة. شكراه، ثم نظرا إلى هيثم، وقال له مازن:

- بعد إذنك، نِحْنَا شُو عَمْ نِعمِل هُون؟

- ما تستعجلش، هتفهم مِنُّه كُلّ حاجة دلوقتي، الآنسة سلمى معاك عشان لو احتجت ترجمة بينك وبينه.

نظر له (جان) بهدوءٍ تام، وطلب مِنْه أن يَقُصَّ عليه كُلَّ شيءٍ: منذ أن قرَّرَ تَرْكَ سوريا، حتى هذه اللحظة..

***

نظرَ مازنُ أمامَه وتاهَ تمامًا، وكأنه في سَكرات الموت، ورأى الملائكةَ آتين، نظرَ أمامَه، وتاهَ عن الزمان والمكان، وبدأ في حديثٍ لم يتوقفْ.

سوريا..

أرضُ الأحلام..

الأرضُ التي عشقناها، فعشقتْنا..

حُلمُنا في الصغر، وأملُنا في الشباب..

Scanned by CamScanner

التي ضاعت بسبب مجموعةٍ من الحَمْقَى. لا نعرف مَنْ هم، أو ماذا يُريدون، أو ماذا يأملون. ضاعت بسببِ لعنةٍ تُسمَّى (السياسة). سوريا التي كانت وجهةَ الكثيرين، أصبحتِ الآنَ مَدْفنًا كبيرًا لأبنائها. سوريا الحبيبة، أصبحتْ بِركةَ دماءٍ. لا أكثرَ ولا أقلَّ. بِركةُ دماءٍ كبيرةٌ، تزداد فيها كميَّةُ الدماءِ يومًا بعدَ الآخَر. وكُلَّما هَدَأتِ الأمورُ، وظننَّا أن تلك الدماءَ ستنضب، تشتعلُ مرةً أُخرى لتمتلئَ البِركةُ من جديد.

خرجَ مازنُ، كعادتِه كلَّ يومٍ، إلى دُكَّانِه. ربما جعلتِ الحربُ كلَّ شيءٍ صعبًا. ولكن، مَنْ سيتوقفُ عن السَعيِ وراءَ لُقمَةِ العَيشِ، حتى لو كانَ وسطَ الحرب؟! ربما البيعُ والشراءُ أصبح قليلًا، ولكنه يكسِبُ ما يكفي قُوتَ يومِه، وفقط.

قُرَّتا عينِ مازنَ هما عائشةُ وخديجةُ؛ سمَّاهُما تَيَمُّنًا بزوجاتِ النبيِّ -عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ-. لم يكنْ ينزِلُ من بيتِه حتى تستيقظا، فتتقافزا على كتفيه، تُقبِّلاه، يداعِبُهما ويُقبِّلُهما، ثم يذهب للبحث عن لُقْمَة العَيشِ.. التي لم تَعُدْ موجودة.

كانتِ الأيامُ تَمُرُّ مُتشابِهةً للغاية. يذهب مازنُ صباحًا إلى عملِه، يعود في وَسَطِ النهار، يتناول غداءَه، يُجالِسُ أُسرتَه قليلًا، ثم ينطلق إلى عملِه مرةً أُخرى، حتى يَحِلَّ المساءُ.

ولكن، لَم تَطُلِ الفترةُ الهادئةُ كثيرًا، ففي بلدٍ كهذه، وظروفٍ كتلك، لن تنعمَ براحة البالِ أبدًا. فكان المَصابُ الأولُ الذي طال أُسرةَ مازنَ، هو أختُه التي تمَّ اعتقالُها منذ فترةٍ طويلةٍ، وخرجتْ

Scanned by CamScanner

بعدَها بأضرارٍ نفسيَّةٍ لم تُشْفَ منها. ولم يكنْ هذا سوى لأنها قرَّرتْ أن تُشارِكَ في بعض أعمال الإغاثة: لإنقاذ ما يمكنُ إنقاذُه، لمُساعدةِ أبناءِ الوطن، والوطنِ الجريح.

فأختُه -التي حكتْ ما عانت مِنْه، عندما خرجت من السجن، لأحد القنوات الفضائية- قد رأتِ الويلاتِ في فترة حبسِها، عانى مازنُ كثيرًا لاستعادة تلك المشاهد، التي كانت حاضرةً في ذهنِه ولا تغيب. كم كان الألمُ صعبًا، وكم كان الشعورُ بالمهانة أمرًا قاسيًا، ناهيك عن التعذيب البدني التي لاقته في تلك السجون.

لم يَغِبْ عن بالِه نظراتُ عينيها، وهي تروي كيف كانوا يضربونها بأسلاك كهرباء شائكة، ويقومون بعمليات الشبح (ربط اليدين والرجلين في السقف)، ومن ثَمَّ الضرب على الرأس، وكيف أنها حُشِرَتْ مع ١٣ فتاة، في غُرفةٍ طولُها متران، وعرضُها متران، أمَّا أكثرُ ما كان يؤلمُها: فهو أصواتُ التعذيبِ القادمةُ من الغُرَفِ المُجاوِرة.

لم ينسَ عندما حَكَتْ له أنها أُرغِمَتْ في إحدى المرات على مسح دماء معتقلين تُغطّى إحدى تلك الغُرَف. وكيف أنها وقفتْ عاريةً أمامَ المُفتِّشِ، في موقفٍ «ليس هناك أكثر خزيًا مِنْه».

وبالطبع، لم تنسَ أن تذكُرَ أن الأكلَ كان يُقدَّمُ في أكياسٍ مملوءةٍ بالشَّعرِ والوَسَخ، وكانت تتلقى تهديداتٍ بنشر صورِها عاريةً على الإنترنت طوالَ الوقت.(*)

(*) قصة حقيقية من موقع الجزيرة

Scanned by CamScanner

لم تكنْ أُسرةُ مازن فقط مَنْ تُعانِي مِثلَ تلك الأمور، كلُّ سوريا تُعانِي، ولطالما نصحها بالابتعاد عن العملِ المدنيِّ والمقاوَمةِ وكلِّ تلك الأمور، كانت دائمًا ما تتَّهِمُه بالجُبْنِ والتخاذُل، لم يكنْ يغضبُ منها بقَدْرِ ما كان يخافُ عليها.

كان هذا الأمرُ مُجرَّدَ خلافٍ في وجهاتِ النظر ليس أكثر، هي ترى أنهم سيُعانون وسيُقتلون وسيُعذَّبون ويُعتقلون في أيِّ حال، فليكنْ هذا إذًا لسببٍ قويٍّ، فليكنِ الاعتقالُ مُبرَّرًا إذا، فلنَقُمْ بما علينا، والباقي يُدَبِّرُه الله. أمَّا مازن، فكان من أنصار السير داخلَ الحائط؛ تفادِيًا للمُشكلات. ورغم ما حدث لأُختِه، إلَّا أنها لم تندمْ أبدًا على أيِّ شيءٍ قامتْ به، بل ظلَّتْ فخورةً بما فعلت.

وفي ذاتِ يومٍ مشئومٍ لم يكنْ بالحُسبان، وقع ما خَشِيَه مازنُ طوالَ الوقت، ويبدو أن السيرَ داخلَ الحائطِ لم يكنْ هو نهاية المَطَاف بالنسبة له ولأُسرته.

خرج مازنُ إلى عملِه، لم يكن هناك جديد، كان كلُّ شيءٍ كما هو، فتحَ دُكَّانَه، ورَشَّ القليلَ من المياهِ أمامَه.. «يا فتَّاح يا كريم!»..

لم تَمُرَّ بضعةُ دقائقَ حتى جاء الحاجُّ عمَّار، صاحبُ ورشةِ النجارة المُجاورة..

- صباحُ الخيرِ يا حاجّ عمار!

- صباحُ الخيرِ يا مازن..

- ما راح تبَطِّل بقى تفتح هي الورشة؟ ما عاد فيه زباين!

Scanned by CamScanner

- لمّا تلاقيني ما فتحت الورشة، وقتها تعا ل حتّى تحضر عزايتا !

- الله يعطيك طولة العُمُر، بس انت بتتعب على الفاضي.

- شُو راح أعمل؟ أقعد بالبيت و أحط يَدّي على خدي؟! كل واحد بياخد نصيبه من ها الدنيا، وما حدا بياخُد رزقة غيره.

مرّتِ الساعاتُ حتى مُنتصفِ اليوم. كانت ريمُ ترغب في بعض الحليب لتُحضّرَ الطعام، لم تجدْ من تُرسِلُه إلى المحل، فأرسلت عائشة، كانت هذه اللحظة هي المفضلة للطفلة الصغيرة، كانت تحب أن تخرج إلى محل والدها، حتى مع تحذيره لها، في كل مرة، من مخاطر الخروج من المنزل، إلا أنها لم تكنْ تُطيعُه أبدًا في هذه النقطة بالذات.

خرجتْ عائشةُ واتجهتْ إلى محلّ والدِها.

- بابا، ماما بِدْها حليب.

- مو قلتلّك مية مرّة ما تطلعي؟!

- هي اللي بعتتني منشان جيب حليب..

- طيّب، راح أعطيكي إيّاه، و تروّحي على طول!

دخل مازنُ إلى المحلّ ليُحضِرَ اللبن، ولكن، ما إن مَدَّ يَدَه في قِدْرِ اللبن، حتى سمِعَ دويَّ انفجارٍ هزَّ المكانَ بأكملِه، سقط مازنُ أرضًا

Scanned by CamScanner

ليصطدمَ بإحدى الثلاجات المتواجدة في المحلّ بقوة. وانكسر زجاجُ المحلّ بأكمله. وأصبح المحلُّ عبارةً عن فوضى عارمة. تحامَلَ مازنُ على نفسِه وألمِه. خرج مُسرِعًا ليجدَ عائشةَ مُلقاةً على الأرض. احتضنها. وحملها داخلَ المحل. وضعها أرضًا. وخرج مرَّةً أخرى ليتفقَّدَ الحاجَّ عمَّار. ليجدَه طريحًا. والدماءُ تسيلُ من رأسِه. حاول أن يُحرِّكَه؛ لعله يستجيب. إلَّا أن الرجلَ المُسِنَّ كان قد أسلم الروحَ إلي بارئها.

بكى مازن. وهو يصرخ بصوتٍ عالٍ لعله يستجيب. إلَّا أن الحاجَّ عمَّار لم يَرُدَّ عليه. حمله مازنُ على ذراعيه. ووضعه داخلَ ورشتِه التي تهدَّم جزءٌ منها. ثم عاد مرةً أخرى إلى محلِّه؛ لعائشة.

لم يكنْ هذا الانفجارُ سوى نتيجةٍ لأحدِ البراميلِ المتفَجِّرَة. التي تُلقَى يوميًّا. في جميع أنحاء سوريا.

وقد اتَّجه النظامُ في سوريا إلى استخدامِ هذه البراميلِ كسلاحٍ أساسيٍّ في حربه على السوريِّين. ولم تكن لها أيُّ ميزةٍ سوى أنه سلاحٌ رخيصٌ وفتَّاكٌ للغاية. وهو سلاحٌ بدائيٌّ للغاية. مُخصَّصٌ للقتل والتدمير. فهو مثلُ قذيفةٍ عشوائيَّةٍ لا يُمكنُ التحكُّمُ بها على الإطلاق. بمُجرَّدِ رميها. فإنها تحصدُ الأرواحَ حصدًا. حيث لا يمكن التحكُّمُ في اتجاهِها أو مسارِها.

وفي بداية الحرب. كانت القوات السورية ترمي هذه البراميل على ارتفاعات منخفضة؛ حتى تصيب قوات المعارضة. ولكن. مع تصدِّي المعارضة لتلك الطائرات. اتجهت قواتُ النظام السوريِّ

Scanned by CamScanner

لرَمْيِها من على ارتفاعات عالية للغاية، مِمَّا جعل استخدامَها عشوائيًّا ومُدمِّرًا إلى أقصى درجات التدمير.

خرج مازنُ مُسرِعًا، ليجد أن الضربة هذه المرة قد طالت منزلَه، حمل عائشةَ وجرى مُسرِعًا، حتى وصل إلى البيت الذي تهدَّمَ جزءٌ مِنْه جرَّاءَ القصف، صعد على الدَّرَجِ المكسورِ مُهرولًا، حتى وصل إلى شقته.

وقف مازنُ عند الباب مُتسَمِّرًا، زاغت عيناه وهو يرى زوجتَه مُلقاةً على الأرض، وبجانبها خديجة.

ليس من السهل أن تنظرَ إلى ابنتِكَ فتجد عظامَ رأسِها مكسورة، ومُخَّها مُلقًى على الأرض بجوارِها، كان مشهدًا مُروِّعًا، لو حاول أفضلُ المُخرجين أن يُخرِجَه بالشكل الذي كان عليه، لما أطاعتْه يداه.

وقع مازنُ على الأرض، لم تتمكنْ قدماه من حملِه، ولم تتمكنْ يداه من أن تمتدَّ لتجمعَ أجزاءًا من جسدِ ابنتِه المُحَطَّمِ أمامَه، صرخ، وبكى، ولطم وجهَه، صرخ كثيرًا لعلَّ أحدًا يسمعه، فيأتي. هل يُمكنُ أن تستفيق؟ هل يُمكنُ أن تُردَّ فيها الروحُ من جديد؟! كان يعرف جيدًا أن هذا غيرُ مُمكِن، وأن زمنَ المُعجِزات انتهى وولَّى منذ أمدٍ بعيد، كان بكاؤه أقوى وأصعبَ من أن يتحملَه قلبُ بشر.

***

Scanned by CamScanner

كان الصمت التام هو المسيطر. أمّا سلمى فلم تتمكنْ من مُغالبةِ دموعِها. فتركت لها مُطْلَقَ الحرية. ولم يكن من مازن وريم سوى البكاء في تلك اللحظة.

حاول (جان) أن يقطع هذه اللحظة المأساوية. وسأله إن كان يرغب في أن يستريح قليلا..

خرج الجميعُ من الغُرفةِ لاستنشاقِ بعضِ الهواء.

وقف هيثمُ في أحد الأركانِ وهو صامتٌ تمامًا. فاقتربتْ مِنْه سلمى. وهي تعرف تمامًا. أن ما يُفكّرُ فيه. هو نفسُه ما تُفكّرُ هي فيه. كانت تعرفُ أن الصمتَ في تلك الأوقاتِ أبلَغُ من أيِّ كلامٍ يُمكِنُ أن يُقال. حاولتْ أن تتحدَّثَ. إلّا أن لسانَها لم يُطِعْها. وقفتْ بجانبِ هيثمَ كالصنم. وهي تُحاوِلُ أن تكسِرَ الصمتَ القائم.

- هجيب عصير. أجيبلَك؟

- خلّيكي. هبعَت العسكري يجبلِك اللي إنتي عايزاه..

- لا. أنا حابّة أخرُج برَّة شويَّة على ما نرجع تاني.

- ماشي. وما تعمليش مشاكل مع حد في الطريق..

- ههههههه.. حاضر.

***

عادتْ سلمى بعدَ نصفِ ساعةٍ. لتجدَ الوضعَ كما كان عليه. نادى هيثمُ الجميعَ: للعودةِ مرةً أُخرى إلى غُرفةِ التحقيق.

Scanned by CamScanner

جلس كلٌّ في مكانِه، وبادر (جان) بسؤال مازن عمَّا حدثَ بعدَ وفاةِ ابنتِه.

***

اسودَّتِ الحياةُ في أعيُنِ جميعِ أفرادِ الأسرة. أصبحتْ سوريا سجنًا أكبرَ ممَّا كانت. وأصبح كلُّ ما فيها يُذكِّرُهم بآلامِهم وأوجاعِهم.

كانتِ الأضرارُ اللاحقةُ أكبرَ بكثيرٍ ممَّا يُمكِنُهم احتمالُه، ولكنها سُنَّةُ الحياة في سوريا هذه الأيام. على كلِّ منزلٍ أن يُقدِّمَ شهيدًا أو أكثرَ ليرويَ بدمائِه هذه الأرض.

كان جزءٌ من منزلِه قد تهدَّم إثْرَ الهجمةِ الأخيرةِ التي طالتْه، ممَّا دفعه إلى إعادةِ بنائِه مرةً أُخرى.

مرَّتْ أيامٌ عِدَّة، وهما يحاولان رأبَ الصدعِ الذي حدث؛ الصدعِ الماديِّ والنفسيِّ، ولكنهما كانا على يقين أن هذه الأزمةَ لن تنجلي، فابنتُهما هي مَنْ ماتت أمامَ أعيُنِهما.

لم تَعُدْ ريمُ كما كانت. أصبحتْ ريمُ مثلَ الوردة الذابلة، وكأنكَ تمتلكُ حديقةً غنَّاءَ خضراءَ، ثم أهملْتَها فجأةً دونَ أيِّ مُقدِّمات، حتى ذبلتْ زهورُها، وماتتْ أوراقُها، وتحوَّل لونُها الأخضرُ المُبهِجُ إلى لونٍ قاتمٍ، لا يدلُّ على شيءٍ، سوى الموت!

كانت من بين الإصابات التي حلَّتْ بالأسرة، إصابةٌ في يَدِ ريم، إصابةٌ تبدو بسيطة، ولكنَّها أثَّرتْ على حركةِ يَدِها،

حتى بعد أن حاول مازنُ أن يجدَ الطبيبَ الذي يُمكنُه علاجُها أخبره أن يَدَها لن تعودَ أبدًا كما كانت. ولن تعملَ بكاملِ طاقتِها مرةً أُخرى.

كان المَصَابُ عظيمًا. كما أن كلَّ ما كان حولَهما كان يُذكِّرُهما بالابنةِ الغائبةِ الحاضرة: غائبةٌ بجسدِها. ولكنها حاضرةٌ في كلِّ شيء.. في الطعام والشراب. في الملبس. في رائحة المنزل. في خِزانةِ ملابسِها المليئةِ بالملابس المُلوَّنةِ الزاهية. في أحذيتِها الصغيرة.. كلُّ شيءٍ يُذكِّرُهم بها.

كان القرارُ لدى مازنَ قد حُسِمَ بعدَ عدَّةِ أشهُرٍ من هذه الحادثة الشنيعة: الفرار.

هذا هو القرارُ الذي اتخذه مازن. ولم تستطعْ ريمُ أن تُعارِضَه فيه. ربما إن بقي أكثرَ من هذا لفقدَ بقيَّةَ أُسرتِه. أو فقدتْه أُسرتُه. كان القرارُ نهائيًّا. وبالفعل. لم يتوانَ في البحث عن الطريقة التي يتمُّ بها الأمر.. الهَرَب.

بدأ مازنُ في البحث عن الوسيلةِ المُناسبة للهَرَب. كان الأمرُ صعبًا. ومُكلِّفًا للغاية. لابُدَّ من البحث عن شخصٍ ما له عَلَاقةٌ بالأمر. ولكنه يعرف تمامًا مُخاطرةَ المُجاهَرَةِ به. فالجاسوسيَّةُ أصبحتْ سِمَةَ حياةٍ في سوريا.

ظلَّ مازنُ. لمدةِ أُسبوعٍ. يبحثُ بشكلٍ غيرِ مُباشر. حاولَ أن يتحرَّى الدقَّةَ في الأشخاص الذين يطلب منهم المساعدة.

Scanned by CamScanner

أشخاصٌ يضمنُ تمامًا أنهم يُحبُّونَه، ويُحبُّونَ له ولأسرته الخيرَ.

جمع الكثير من المعلومات عن بعض المُهرِّبين الذين يقومون بهذه الأمور. رتَّبَ له أحدُهم موعدًا معَ شخصٍ يُدعى (أبا يُوسُف). وبالطبع كان هذا اسمًا مُستعارًا. قابله واتفق معه على أن يُهرِّبَ عائلتَه مُقابِلَ ٦ آلاف دولار للفرد الواحد. لم يكنْ مبلغٌ كهذا مُتوفِّرًا معه. ولكنه وعد هذا الـ(أبا يُوسُف) أن يأتيَه به خلالَ أُسبوع. كان القرارُ قد حُسِم، وبالتالي، قرَّرَ أن يبيعَ كلَّ ما له في سوريا، وأن يضعَ كلَّ شيءٍ يملِكُه هو وزوجتُه في هذه المخاطرة. وبالفعل، باع ما تبقى من منزلِه المهدوم، والمحل، وبعض الأملاك القليلة، كما أنه حصل على بعض المساعَدَات من أقربائه وأحبَّائِه. وفي خلال أُسبوعٍ، أصبح لديه ١٥ ألف دولار: ١٢ ألفًا لأبي يُوسُف، و٣ آلافٍ له ولأسرته.

كان مازنُ ينظرُ لهذه الدولاراتِ على أنها مركبُ النجاةِ التي ستُقِلُّه إلى برِّ الأمان.

جمع مازنُ وريمُ ما خفَّ وزنُه وغلَا ثمنُه. حاول أن يحملَ كلَّ ما سيحتاجُه هو وريمُ وعائشة: بعض الملابس الثقيلة، وبعض المدَّخَرات.

اتفق مع المُهرِّبِ على أن يذهبوا إلى تركيا، ومنها إلى البحر ثم إلى ايطاليا. كان هذا هو خطُّ السيرِ المتَّفَقُ عليه.

كان الاتفاقُ أن يتقابلا في (مارسين).

Scanned by CamScanner

ولكن الأمرَ الأصعبَ هو الخروجُ من سوريا نفسِها. فإن كان التحرُّكُ خارجَ سوريا صعبًا بنسبة ٧٠%. فالتحرُّكُ داخلَها أصعبُ بنسبة ٢٠٠%.

حصل مازنُ على رقمِ سائقٍ ذِي درايةٍ بالمناطق الداخلية. والأهمُّ هو أن يكونَ على عَلَاقةٍ ببعض الشبِّيحَةِ والضباط المسئولين عن الحواجز الأمنية في الطريق للحدود. فكلُّ مِنطَقةٍ لها مَنْ يُسيطرون عليها. سواء كان النظام أو المُعارضين.

تحرَّكَ مازنُ وأُسرتُه صبيحةَ اليومِ التالي. كانت الحركةُ صعبةً بعضَ الشيء. ومحفوفةً بالمخاطر. فربما تسقط عليهم قذيفةٌ أو قنبلة. وهو الأمرُ الذي أصبح اعتياديًّا في سوريا. كان يدعو اللهَ أن يصل إلى مقصده بسلام. فهو لن يتحمَّلَ أن يفقدَ زوجةً أو ابنةً أُخرى.

كان مازنُ محظوظًا؛ فقد مرَّ على ثلاثةِ حواجزَ أمنيَّةٍ. ولكي يَمُرَّ. كان على السائق أن يَمُدَّ يَدَه لمازن. فيُخرِج مازنُ من جيبِه مبلغًا. ويعطيه للسائق. الذي يُعطيه بدورِه للشبِّيح الذي يقف في الحاجز. فيسمح له بالمرور. وعلى الجانب الآخر. رأى مازنُ أناسًا في هذه الحواجز قابعين على أرجُلِهم. أيديهم فوقَ رؤوسِهم. لم يعرفْ تحديدًا ماذا حدث لهم. ولكن المنظر لم يكنْ يُوحِي بأيِّ خيرٍ على الإطلاق.

وفي الحاجز الأخير. كان المشهدُ الأصعب. فبينما كان السائقُ يتحدَّثُ مع أحدِهم ليسمح لهم بالمرور. نظر مازنُ عن يمينه. ليرى

Scanned by CamScanner

ضابطًا يسحبُ شخصًا ما مثلَ الغنم. كان يركُلُه ويضرِبُه في كلِّ مكان. وما إن أسقطه أرضًا. حتى أخرجَ سلاحَه. وأسكن طلقةً في رأسِه ليردِيَه قتيلا. كان المشهدُ صعبًا. مما دفع الطفلةَ الصغيرةَ للصُّراخ.

بعدَ وقتٍ طويل. وصل لحوالي عشر ساعات. وصلتِ السيارةُ إلى مكانٍ قريبٍ من المكان المُتَّفَقِ عليه. فكان المُهرِّبُ قد حذَّرَه حتى من السائق. لدرجة أنه حذَّرَه أيضا من زوجتِه نفسِها. كان الأمرُ محفوفًا بالمخاطرِ من جميعِ الجهات. فقد تكون روحُه وروحُ مَنْ مَعَه هي ثمن هذه المُغامَرة.

بعدَ طريقٍ طويلٍ ومُرهِق. وصل مازنُ إلى نقطةٍ ما. ترجَّلَ هو وأُسرتُه ليُكمِلَ المسافةَ المتبقيةَ سيرًا على الأقدام. والتي كانت تُقدَّرُ بحوالي خمسة كيلو مترات.

كانت عائشةُ مُتعبةً للغاية؛ لصِغَرِ سِنِّها. وقدرتِها الضعيفةِ على الاحتمال. فاضطرَّ مازنُ إلى حملها. إضافةً إلى الحقائب التي كان يحمِلُها. ربما المسافةُ قريبةٌ بعضَ الشيء. وليست بهذا البُعد. ولكن التعبَ والإرهاقَ والجوَ المُحيطِين. جعلوا من الخمسة كيلو مترات وكأنها خمسون كيلو مترًا.

بعد مُعاناةٍ. وصل مازنُ إلى (أبي يُوسُف). كانت هناك سيارةٌ حمولتُها ثمانية أفراد. أدخَلَهُم فيها. وأغلق البابَ دون أن ينتظرَ حتى أن يجلسوا أو يتخذوا مواقِعَهم. كانتِ السيارةُ ضيقةً من الداخل بسبب كثرة الحقائب.

Scanned by CamScanner

وكان بها خمسةُ أفرادٍ آخرين، كلُّهم سيخوضون نفسَ الرحلة التي سيخوضُها مازنُ وأُسرتُه الصغيرة. وبينما كان مازنُ يُحاوِلُ أن يجدَ مكانًا لزوجتِه وابنتِه، تحركتِ السيارةُ دونَ سابقِ إنذارٍ فوقعوا جميعًا فوق الآخرين. وسادتْ حالةٌ من الهَرَجِ في مُؤخِّرةِ السيارة. بعد قليل، اتخذ كلٌّ موقِعَه، وتركوا أنفسَهم لمصيرٍ وقدَرٍ لا يعرفون عنه شيئًا. تركوا أرواحهمَ لغَدٍ قد لا يُشرِقُ عليهم مرةً أُخرى.

كان الصمتُ هو سيدُ المكان، هو المُسيطِر، وهو سيدُ الموقف، وهو الحاكمُ بأمِره. لم يكن هناك سوى صوتِ "موتور" السيارة الذي يدلُّ على أنها قديمة. كانوا جميعًا فوقَ بعضِهم البعض، ولم يكنْ لديهم أيُّ فرصةٍ سوى احتمالِ بعضِهم.

ساروا ساعتين.. حتى توقفتِ السيارة. انتظروا نصفَ ساعةٍ حتى اقتربتْ سيارةُ "جيب" توقفتْ أمامَهم، نزَلَ أبو يُوسُفَ من السيارة، واقترب من السيارة الأُخرى على مَهْل، صافحَ سائقَها، ثم أخرج من جيبِه رُزمةً من المال وأعطاها له. لم يفهمْ أيٌّ منهم مَنْ هؤلاء، ولماذا يأخذون المال، أو ما دورُهم في هذه العملية من الأساس، ولكنهم فضَّلوا ألَّا يسألوا، هم يُريدون فقط أن يصلوا إلى وجهتِهم بسلام..

بعدَ بضعةِ دقائق، عاد أبو يُوسُفَ إلى السيارة مرةً أُخرى ليستكملوا المَسير. ساروا لمدة ساعتين إضافيَّتَين، حتى وصلوا إلى مِنطَقةٍ تَبعُدُ بضعةَ كيلو متراتٍ عن الحدود التُركيَّة.. كان

Scanned by CamScanner

عليهم أن يتركوا أبا يُوسُفَ وسيارتَه، ليلتحقوا بمُهرِّبٍ آخَر.

ترجَّلَ الجميعُ من السيارة، وتحدَّثَ لهم أبو يُوسُف قائلا:

"أنا راح اتركُون هُوْن، و راح تكونوا بأمانة الأخ أبو ناصر: هوَّ راح يكون المسئول عنكُوْن لحد ما توصلوا على الحدود، وتفوتوا لمدينة مارسين.."

تدخَّلَ مازنُ قائلا: لحظة بس يا أبو يُوسُف، وناصر هاد شو راح يعمل بالظبِط يعني؟ وين راح يترِكْنا؟ ولمَّا يترِكْنا، شُو راح يصير فينا؟

- أبو ناصر راح ياخِدْكُون: لحد ما توصلوا للمركب اللي راح تاخِدْكُون لإيطاليا. بس ما تنسوا.. كلمة السر هي مارسين.

تركهم أبو يُوسُفَ في حيرتهم وخوفِهم، وأنزل الجميعَ من السيارةِ في ليلٍ حالِك ورحلَ حتى بدأ صوتُ "موتور" سيارته يبتعدُ شيئًا فشيئًا. كان الرعبُ يُسيطرُ عليهم جميعًا، إضافةً إلى لسعات الهواء الباردة التي لم يحتملْها الأطفال.

تأخَّرَ عليهم أبو ناصر برهة، راودتْهم خلالَها جميعُ الأفكار البَشِعة، بدءًا من اعتقالِهم من قِبَل القوات السورية، أو من قِبَل بعض المُسلَّحين، انتهاءً بمَقتَلِهم في أماكنِهم، ومقتلِ عائلاتِهم وأطفالِهم.

كانوا أُسرَتَين: أسرةُ مازن، والأُسرة الأُخرى مُكوَّنةٌ من أبٍ وزوجتِه وطفلين، أحدُهما صبيٌّ، والآخرُ لا يزال رضيعًا.

Scanned by CamScanner

لم يكنِ الطعامُ الذي معهم يكفيهم جميعًا، ولكنهم حاولوا أن يقتسموه. حتى يظهرَ لهم أيُّ بريقِ أمل.

بعدَ انتظارٍ دام ثلاثَ ساعات. رأوا ضوءًا ضعيفًا يجوب المكان، احتواهم خوفٌ شديد. ولكنهم هدأوا؛ عندما وجدوه شخصًا واحدًا، ولا يحمل أيَّ سلاح. اقترب مِنْه مازنُ ونظر إليه. فنظر الرجلُ إليه وقال:

- كلمة السر؟

- مارسين.

- طيِّب. يلَّا اتحركوا بسرعة. ما معنا وقت كتير.

- طيِّب فهِّمْنا شُو راح نعمل، وشو مصيرنا؟

- بتفهموا بعدين. لسه معنا وقت. يلَّا بسرعة مِنْشَان نقدر نمرُق..

في ظلامٍ قاتمٍ، وهدوءٍ مُخيفٍ، بدأوا في التحرُّك. من حُسن الحظ أن الرضيعَ كان نائمًا، وإلَّا لَفَضَحَهم صوتُ بكائِه في هدوءٍ كهذا. ساروا مع أبي ناصر حتى وصلوا إلى سيارةٍ أُخرى، ركبوا فيها، وتحرَّكتِ السيارةُ بسرعةٍ؛ في طريقها إلى مُغادرةِ سوريا بأكملها.

لا يعرفُ مازنُ عن مدينةِ مارسين سوى القليل، فهي مدينةٌ تقبع في جنوب تركيا، وتمتلك ميناءً على ساحلِ البحر المتوسط، والذي، بالتأكيد، سيكون هو منفذهم للهَرَب.

Scanned by CamScanner

سارتِ السيارةُ فترةً غيرَ قصيرة. توقفوا خلالَها عدَّةَ مرّات. ولكن، كان أبو ناصر يتكفَّلُ بكلِّ شيءٍ: فكان من الواضح أنه قدَّمَ الرشاوَى لكلِّ مَنْ قابله. لم يكنْ مازنُ يهتم في حقيقة الأمر، لم يكنْ يسأل، طالما أنهم يسيرون، وهناك من يقوم بكلِّ شيءٍ بعيدًا عنهم، فلا بأس إذًا!

بعدَ فترةٍ، طالتْ أو قصُرَتْ، توقفَتِ السيارةُ أمامَ أحدِ المنازل، طلب منهم أبو ناصر النزولَ من السيارة، والدخولَ إليه بسرعة. لم يفهموا شيئًا، ولكن، في النهاية هم مُجبَرون على تنفيذ كلِّ ما يقوله، فلا ملجأ لهم سواه الآن.

- أبو ناصر، نِحْنَا وِين هلَّأ؟

- نِحْنَا حاليا في مارسين، راح تناموا هُون للمِسا، وأول ما الدنيا تلبِّل، راح نتحرَّك على الساحل على طول؛ مِنْشَان ناخُد المركب اللي راح تتحركوا فيها.

- أهم شي تكون المركب أمان..

- و الله هي مركب مطَّاطي. إنتوا وحظْكُونْ..

- لحظة.. شُو يعني مركب مطَّاطي؟ و إنتوا وحظْكُونْ؟

- يعني يا أخي المراكب عِنَّا عدة أنواع: مركب مطَّاطي، و هاد اللي انتوا دافعين مصاريه، و في مركب سياحي، و هاد بِكُون غالي..

- بس أنا أبو يوسف ما حكالي على الموضوع هاد، و لا حتى

Scanned by CamScanner

سألني عنها

- والله أنا مالي دَخِلْ بالقصة هي.

- هو المركب السياحي بأدّيش؟

- بِدْهُون مِنَّك ألف دولار زيادة عن كل شَخِصْ.

- ألف دولار والله كتير. ما فِيْنِي إعطيك تلات آلاف دولار!

- بحكم الظروف اللي إنتَ فيها، ما راح أحسبلَك العبْلة الصْغِيرَة، راح آخُد مِنَّك ألفين دولار بس. مُو عاجبك، السيارة اللي جابتَك ترَجْعَك!

دخل مازنُ إلى الخيمةِ التي سيَبِيتُ فيها ليلتَه، كان وجهُه مُتجهِّمًا، كان واضحًا وجليًّا أن هناك مُصيبةً ما، اقتربتْ منه ريمُ في تردُّدٍ، نظر إليها، ثم أدار وجهَه الجهةَ الأُخرى، كانت تعرفُ أنه مُثْقَلٌ بالهموم، فيه ما يكفيه، ولا يكادُ يحتملُ أيَّ ضغطٍ، تعرفُ ما سيمرُّون به، وما سيعانُون مِنْه، تعرفُ أنهم ذاهبون إلى المجهول، المجهول والخطر، وربما إلى الموتِ ذاتِه، تعرف أنه يحملُ همَّها وهمَّ عائشةَ، وأن قلبَه يُعتصَرُ حُزنًا؛ على فراق ابنتِهما التي وَارَاهَا التراب، تعرفُ أنه يحملُ كلَّ ذلك بداخِلِه، ولكنه يكتمُه، تعرفُ أنه يحملُ في طيَّات قلبِه الكثيرَ من الدموع، ولكنه يكتمها؛ حتى لا يتسربَ إليهما جَزَعٌ وخوف، أو ضعف، ولذلك، فضَّلَتْ ألا تسأله، ولكنها اكتفتْ بأن ختضنَ رأسَه، اكتفتْ بأن تُخبِرَه بأنها تُحبُّه، ولو أن هذه الرحلة هي آخر محطَّاتِهما سويًّا، فليعلمْ أنها

عشِقَتْه إلى المُنتهَى.

ناموا جميعًا، حتى استيقظوا على أصواتٍ في الخارج، اعتدلَ مازنُ، وفَرَكَ عينيه، ثم خرج، ليرى أبا ناصرَ مُمْسِكًا بمصباحٍ قديمٍ ويتحدَّثُ مع أحدِهم.

نظر إليه أبو ناصر، ثم قال:

«مازن، جهِّز حالك؛ لأن راح نطلع».

دخل مازنُ إلى الخيمة، أيقظ ريمَ وعائشةَ، وأعدَّ العُدَّةَ للرحيل.

بينما كانوا ينتظرون إشارةَ التحرُّك، كان مازن ينظر إلى البحر، والخوف يَعتصِرُ قلبَه، لطالما أخبره والدُه جُملةً لا يمكنُه أن ينساها: "البحر مالو كبير يا مازن". لطالما أخبره تلك الجُملةَ في وَضَحِ النهار، وزُرقة المياه رائعة، وممتعة، ومغرية للعوم فيها.. فما باله اليوم يتذكرها، والبحر ما هو إلَّا قطعة سوداء، لا يكاد يُميِّزُ منها شيئًا؟!

البحرُ مُرعِبٌ في الليل، مُخيفٌ، قاتلٌ. أصبح مازنُ يكرهُ البحرَ الآن.

بحركة مُفاجِئةٍ، دفعه هذا الشخصُ الجديدُ دفعًا بِجَاهَ المياه، صرخ فيه مازنُ، وطلب مِنْه ألَّا يدفعَهم هكذا، حتى لا يُخيفَ الصغيرة. تقدَّمَ هو، حاملًا عائشةَ، ومعه وريمُ، وتقدَّم معهم بقيةُ الأشخاص، الذين سيصعدون معهم إلى المركب، كان مازنُ قد دفع الألْفَيْ دولار، وبالتالي، انقسم الناسُ إلى مجموعات:

Scanned by CamScanner

مجموعة وُضِعَتْ في هذا المركب المطّاطيّ، القابلِ للغَرَقِ في أيّ وقت، ومجموعة أُخرى في المركبِ السياحيّ، الأفضلِ حالا.

لم يستطعْ أن يُبعِدَ أفكارَ البحرِ السيئةَ تلكَ عن رأسِه، لم يتمكنْ مِنْه سوى الرعبِ التام، وهو ما حاول أن يُخفيَه حتى لا تفزع ابنتُه وزوجتُه، وهو على يقينٍ تامٍّ أنهما في حالٍ أسوأ مِمّا هو فيه.

ركب الجميعُ واستقرُّوا في أمكانِهم، ثم وقف قائدُ المركب على رأسها، قائلًا بصوتٍ عالٍ:

"كلامي بينسمع بالحرف الواحد: مِنْشَان نقدر نوصل بسلام، انتوا راح تضلُّوا مِتْخَبِّين تحت، لحد ما اقولكُون تطلعوا. أي تحريف بالكلام مالكُون عندي غير البَحِر أعطيه يَاكُوْن. أنا ماني أبوكُوْن لحَتَّى خاف عليكُون. كل واحد يخاف على حالُه وعلى حياتُه».

أنهى جُملَتَه المليئةَ بكلِّ معاني السطوةِ والقوةِ والبلطجةِ والتكبُّرِ أنهاها وكأنه يرميهم بسكينٍ باردةٍ، تخترقُ أجسادهم ببطءٍ، حتى تتمزق..

كان يوجد مع مازنَ أكثرُ من خمسين شخصًا، أُناسٌ مُتنوِّعُون، كان بينهم أربعةُ أطفالٍ غير عائشة، والبقيَّةُ تتنوَّعُ بينَ نساءٍ ورجالٍ في أعمارٍ مُختلفة: منهمُ الشيخُ ومنهمُ الشابُ ومنهمُ الزوجةُ ومنهم العَزْباء، كلُّهم هربوا من جحيمِ الوطنِ إلى جحيمِ البحرِ والغُربةِ، والمجهول..

Scanned by CamScanner

بدأ المركبُ في التحرُّكِ. ومعه بدأتْ رحلةُ اللَّاعَوْدة. كانتْ هذه الرحلةُ هي التطبيقُ الحرفيُّ لمقولةِ: "البحرُ من أمامِكُم والعدوُّ من خَلفِكم".

بدأتِ الرحلةُ هادئةً تمامًا. بلا أيِّ مُشكلات. كان البحرُ هادئًا أيضًا. لم يعرف مازنُ: هل هذه خُدعَةُ الطبيعة. وهذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة؟! أم أن الطبيعةَ قرَّرتْ أن تقفَ إلى جوارِه هو ومَنْ مَعَه: رأفةً بحالهم؟! كان من الصعب التنبُّؤُ بالأمر. لم يكنْ يمتلكُ سوى الانتظار.

مرَّ اليومُ الأولُ دونَ أيِّ أحداثٍ تُذكَر.

كان كلُّ شيءٍ جيدًا في البداية. حتى استيقظ في الليلة الثانية على صوت رِيم وهي تبكي. استيقظ فَزِعًا. فأخبرتْه أن عائشةَ مريضةٌ وحرارتُها مُرتفِعة. لم يكنْ أيٌّ من القابعين مَعَهُم في نفسِ الغُرفةِ يعرفُ كيف يتصرَّف. حاوَلَ أن يُحرِّكَ ابنتَه. فلم يتحرَّك فيها طَرْفُ إصبع. هلع إلى قائدِ المركب ليُوقِظَه:

- إيه! ليش عَمِ تَفَيِّقْنِي؟! شُو بَدَّكْ مِنِّي هَلَّا؟!

- بنتي عَمِ تموتْ.. أبوس يَدَّك تلحقها!

- إنتَ شايفني دكتور؟! و بعدين لحتَّى أعطيك دوا. لازم تحاسبني بالأول. شُو أنا فاتحها سبيل؟!

- يا أخي حرام عليك: عَمْ قِلَّك البِنِتْ عَمِ تموت. حرارتها مرتفعة. هات أيْ خافض حرارة هلَّأ و مَيّ باردة: أعمل لها كمَّادات.

Scanned by CamScanner

وبعدين منشوف موضوع المصاري هادا

كان قائدُ المركبِ باردًا إلى أقصى درجة. دخل إلى عُرفتِه ببُطءٍ بينما كان الخوفُ والقلقُ يأكلانِ قلبَ مازنَ على ابنتِه الوحيدةِ المتبقيةِ. وبينما هو واقفٌ مُنتظِرٌ هذا الشخصَ ليُحضِرَ له الدواء رآه أحدُ المرافقين على سطح المركب، وعندما سأله عَمَّا يُفزِعُه أخبره مازنُ بالأمر.. ليكتشف أنه طبيب، رَجَاهُ أن يُعايِنَ ابنتَه دخل الطبيبُ معه إلى عُرفتِه، وكشف على ابنته، طمأنَه أنها بخيرٍ، وأنها أُصيبَتْ بإنفلونزا؛ جرَّاءَ المناخ. طلب مِنْه الطبيبُ ألا يأخذَ شيئًا من هذا الأحمق، واتجه إلى حيثُ توجدُ حقيبتُه، وأحضرَ له خافضَ حرارةٍ ودواءً مُناسِبًا. طلب مِنْه أن يضعَ لها بعضَ الثلج على جَبهتِها؛ حتى يُساعِدَه على خفض الحرارة أسرع. لم يعرف مازنُ كيف يشكرُه.. كان مدينًا له بالكثير.

لم يبرحْ مازنُ في اليوم التالي عُرفتَه؛ ظلَّ بجوار عائشة، يُعطيها الدواءَ، ويضعُ لها الماءَ المُثلَّجَ على جبهتِها، حتى تحسَّنَتْ في هذا اليوم بعضَ الشيء، ولكن، بَقِيَتِ الحرارةُ مُرتفعةً بشكلٍ مُقلِقٍ.

بنهايةِ اليوم الرابعِ، كانتْ صحةُ عائشةَ أفضلَ، وبينما هم قابعون في عُرفتِهم مع البقية، أتاهم هذا الصوتُ الكريهُ، من هذا الشخصِ الغبيِّ؛ أخبرهم أنهم وصلوا إلى القوارب الصغيرة، التي ستأخذهم إلى شواطئ إيطاليا، وأنهم اقتربوا، وأن هذا المركبَ لا يُمكِنُه الاقترابُ أكثرَ من ذلك، بسبب القُوَّاتِ البحريَّة.

Scanned by CamScanner

خرجوا جميعًا إلى سطحِ المركبِ حاملين أشياءَهم. نظروا حولَهم ليجدوا أنهم جميعًا في عرض البحر. لا توجدُ مَعالمُ على الإطلاق. لأيِّ شيء.. فقط المياهُ حولَهم في كلِّ مكان. ولكن. في نهاية الأمر. هم لا يملكون من أمرِهم شيئًا: سوى أن ينصاعوا للأوامر. وإلَّا قُتِلوا. كان الأمرُ مُفزِعًا. بدأ الصغارُ في البكاء من شِدَّةِ البرد. وهلع الكبار. كان الأمرُ فوقَ قُدرةِ احتمالِ الجميع.

بدأوا في النزول إلى المراكبِ المطَّاطيَّةِ الصغيرة: واحدًا تلو الآخَر. كانوا يستخدمون سُلَّمًا في النزول. وكان الأمرُ فوضويًّا بعضَ الشيء: بسببِ الهَلَعِ الذي أصاب الجميعَ في تلك اللحظة. والخوف من السقوطِ في المياه.

وعندما حان دورُ مازنَ وأسرتِه. طلب أن تسبِقَه زوجتُه. ولكنها رَفضتْ. كانتْ ترى أن هذا أفضلُ حتى يستطيعَ التقاطَهما هو. بدأ مازنُ في النزولِ ببُطءٍ. حتى وصلَ إلى سطحِ القارب. اقتربتْ ريمُ من طَرْفِ المَركبِ حتى تُعطِيَه عائشةَ. وما إن وضعتْ عائشةُ قدميها على السُلَّم. هاجَ البحرُ دونَ سابقِ إنذار.. ارتعد الجميعُ. واهتزَّتْ ريمُ. وانزلقتْ قدَمَا عائشةَ وكادت أن تسقط. لولا أن أُمَّها ظلَّتْ مُتشبِّثةً بها بيَدٍ واحدة. صرخ مازنُ وصرختِ الطفلةُ وبكتْ. حتى إن قائدَ المَركبِ سقطَ على سطحِها من شِدَّةِ الاهتزاز. حاولتْ ريمُ أن ترفعَ عائشةَ مرَّةً أُخرى. لم تُفلِحْ. كان موجُ البحرِ لا يزال في حالةٍ من الهيجان الغريب. ولسوء الحظ. ابتعد المركبُ عن القاربِ المطَّاطيِّ بمسافةٍ لا تسمح لها بالنزول.

Scanned by CamScanner

كان الموقِفُ فوقَ قُدرةِ احتمال الجميع. كيف ستنزلُ عائشةُ

وكيف ستصلُ ريمُ إلى مازنَ؟ للحظةٍ، تخيَّلَ الجميعُ أنهم تفرَّقوا

تخيَّلَ مازنُ أن ابنتَه وزوجتَه قد ذهبَتَا إلى الأبد. وفي نفس اللحظة

كانتْ ريمُ تبكي من قِلَّةِ الحيلة: ماذا يُمكِنُها أن تفعلَ الآن؟ لم تُفِق

سوى على صوتِ هذا الأحمقِ من خَلفِها، وهو يقول:

- إرميها!

- إنتَ مجنون؟ أرمي مين؟!

- إرمي بنتِك لأبوها. ما في حل تاني؛ موج البحر عالي، وما راح نعرف نقرِّب مِنْهُون.. إرميها لأبوها وهي ونصيبها!

لم يكنْ مازنُ يسمعُ ما يدورُ بينَهما، ولم يكنْ يعرفُ كيف ستتصرَّف. كانتْ فكرةُ أن ترميَها فكرةً مجنونةً، بل مُستحيلةً. إذا رمتْهَا، ستسقطُ الطفلةُ في البحر.. ولكن، ما الحل الآخر؟! لا يوجد.. ما البديل؟! لا يوجد بديل.. إذًا، فَلْيَكُن؛ استجمعتْ ريمُ قوَّتَها وشجاعتَها. صرختْ في مازنَ بصوتٍ عالٍ كي يَسمعَها. صرختْ وهي تُخبِرُه أن يلتقطَ الفتاة. وعلى الرُّغم من صدمته، إلا أنه لم يكنْ لديه الوقتُ كي يتناقش أو يُجادِل. استسلم الجميعُ للأمر الواقع. الكلُّ كان ينظر إليهم وهم يُشفِقون على تلك الأسرة، يُشفِقون على الوضعِ كلِّه. والجميع يعلم تمامَ العلمِ أنه ليس لديهم ما يفعلونه. لا يملكون أيَّ شيءٍ لمُساعدتِهم. تراجعتْ ريمُ عدَّةَ خُطُوات. نظرتْ إلى عائشةِ بحنُوٍّ بالغٍ، وبأسًى:

Scanned by CamScanner

- عائشة، انتي بتعرفي أديش أنا بحبك؟!

- كتير يا إمي!

- واثقة فيني ماما؟

- إيه ماما؟

- غمضي عيونك يا حبيبتي..

ما إن أغمضَتْ عائشةُ عينيها، حتى جرتْ ريمُ سريعًا إلى طرف المركب، وقذفتْ بعائشةَ في الهواءِ تجاهَ القاربِ المَطَّاطيِّ.

لحظاتٌ قليلةٌ هي الأصعبُ على الجميع، على مازن، وريم التي وقفتْ مذهولة مِمَّا فعلتْه، ومن كلِّ مَنْ في القوارب المطَّاطيَّة، حتى البحرُ نفسُه وقف مذهولًا مِمَّا يري: أيَّ شجاعةٍ، وأيَّ تضحيةٍ، وأيَّ جُرأةٍ، وأيَّ بؤسٍ هذا؟!

مَدَّ مازنُ يديه في وضع الدعاء، لم يكن يدعو بلسانه، بل كان يُصلِّي بقلبِه، يدعو اللهَ أن تنجوَ ابنتُه، يدعوه ألَّا تغرقَ في غياهبِ هذا البحرِ اللعين، الذي قرَّرَ أن يُفسِدَ كلَّ شيءٍ فجأةً، كان يدعو اللهَ وهو مادٌّ يَدَيه لالتقاطِ ابنتِه المُعلَّقةِ بينَ السماءِ والبحر، وما إن قذفَتْها ريمُ عاليًا في الهواء، حتى توقفَ الزمنُ عندَ هذه اللقطة: أمٌّ تبكي، ترمي ابنتَها، الابنةُ مُعلَّقةٌ بينَ السماءِ والبحر، الأبُ على وجهِه كلُّ علاماتِ الرعبِ والذهول، مادًّا يديه ليلتقِطَ ابنتَه، وفي لحظةٍ من الجنون، ولحظةٍ من اللَّا وعي، يلتقطُ مازنُ عائشةَ لترتطِمَ الصغيرة بصدرِه، ويقعَ بها داخلَ القاربِ المطَّاطيِّ.

Scanned by CamScanner

نَجَتْ عائشةُ وتنفَّسَ الجميعُ الصعداء.

كان البحر قد هدأ بعضَ الشيء، بقِيتْ ريمُ وحيدةً على المركب لم يكن هناك حلولٌ كثيرة. فوقفتْ على طرفِ المركب، ونظرتْ إلى مازنَ، تضاربتِ المشاعرُ بداخِلِه. قررتْ أن تلجأَ للحلِّ الأخير. قفزتْ ريمُ من سطح المركبِ لتسقُطَ في البحرِ المُظلم، ودونَ تفكيرٍ قفزَ مازنُ في مُحاولةٍ لإنقاذها. ظلَّ مازنُ يضربُ البحرَ بيديه؛ باحثًا عن ريمَ حتى التقطتْها يداه، حملها فوقَ ظهرِه، وسَبَحَ بها، حتى وصلا إلى القارب.

لم يكنْ أيٌّ ممَّنْ شاهد ذلك يتوقَّعُ أن تكونَ النهايةُ سعيدةً، كان الجميعُ يتوقَّعون، في أفضلِ الأحوال، أن يموتَ أحدُهم، ولكن، لكلِّ شيءٍ حكمةٌ.. وللهِ حكمةٌ في ذلك.

نجا الجميعُ من هذه المرحلةِ البشعةِ في الرحلة، تحرَّكتِ القواربُ المطَّاطيَّةُ تجاهَ ما يَدَّعُون أنها شواطِئُ إيطاليا، وبعدَ ساعتين من الانتظار وصلوا إلى البرِّيَّة. نظر الجميعُ، فإذْ بِهِم لا يرون أيَّ شواطئ، فصرخَ أحدُهم:

- وِين جِبتونا؟!

فجاءه ردُّ أحدِ قوَّادِ القوارب:

- كِلْكُون راح تنزلوا هون؛ المصاري تَبَعْكُون ما بتوصَّلْكُون لأبعد من هون.

- بس نِحْنَا دفعنا كلّ اللي طلبتوه مِنَّا

Scanned by CamScanner

- معناتو صاحب المركب نصب عليَّ وعليكُون، ومالكُون عِندي غير إنْكُون توصلُون لهُوْنْ، و يلّا تفضّلوا إنزلوا!

هاجَ الجميعُ ورفضوا النزولَ، وكاد الأمرُ يتطوَّرُ إلى اشتباكٍ بالأيدي، إلى أن أخْرَجَ كلُّ قُوَّادِ القواربِ المطّاطيَّةِ أسلحتَهم، وبدأوا في إطلاق النار في الهواء:

- اللي راح يفتح تِمّه راح يتقوّص بالنار، وراح يِنْدِفِن بالبَحِر، وراحِ يْكُون وجبة دسمة للسمك!

كان صوتُ الرجلِ جهوريًّا، واثقًا من نفسِه، يعرف تمامًا ما يفعلُه، وليس لديه أيُّ نيّةٍ في الترددِ بأن يضرِبَ أحدَهم طلقةً في رأسِه على الفور. وفي هذه اللحظة، حاول مازنُ أن يكون هو صوت العقل في مُحاولةٍ مِنْه لإنقاذِ الجميع..

- طيّب راح نِنْزِل، بس اعطِينا تليفون، و قل لنا نِحْنَا وين..

- إنتوا بجزيرة نيلسون.

- إيه يعني؟ وين ها الجزيرة؟!

- إنتوا بالأسكندرية بمَصِرْ..

- طيّب اعطينا تليفون من التليفونات اللي مَعْكُون؛ على الأقل نقدَر نتصرّف!

كان هذا هو المشهد الأخير، وافقَ الرجلُ على أن يُعطِيَهم هاتفًا صغيرًا كان يحملُه، وبدأ الجميعُ في النزولِ على الجزيرة. لم يكنْ أيٌّ مِنْهم يتوقّعُ تلك النهاية، لم يكونوا يعرفون أنه سيُغرِّرُ بهم،

وأنهم سيُخدَعون بهذه البساطة، وأنهم سيؤولون إلى الأسكندريَّةِ في النهاية.

بعدَ أن أنهَى مازنُ قصَّتَه، نظر إلى الجميعِ فرآهُم صامِتين، لم يكنْ أيٌّ مِنهم يُحرِّكُ ساكنًا: لا المُفَّقِين، ولا هيثم، حتى سلمى التي ترجَمَتْ كلَّ حرفٍ قالَه، رآها ساكنةً، وكأنها كانتْ تُترجِمُ بعقلِها فقط، بينما قلبُها يبكي معَ كلِّ كلمةٍ رواها.

فنظر إلى هيثمَ، وقال:

- وبعد هيك، اتصلنا بالقوات البحرية المصرية، وانتوا جينوا أخدتونا من الجزيرة، وليكنا قاعدين معكُون هلأ.

لم يكن مازنُ يدري أنه بكى، لم يكنْ يعرفُ أن الدموعَ قد انهالتْ من عينيه وهو يروي مشهدَ البحرِ هذا، لم يكنْ يشعرُ بنفسِه من الأساس، حتى اقتربتْ مِنْه ريمُ ومسحتْ دموعَه بيَدَيْها، احتضنها، واحتضن عائشة، ودموعُه تنهالُ عليهما من العجز وقِلَّةِ الحيلةِ، والخوفِ من المجهول.

أخبره (جان) أنهم سينظرون في أمره، وسيُحدِّدُون في نهاية التحقيقات أيَّهم سيذهب إلى أيِّ دولة، طمأنَه أنهم لن يتركوا أيًّا منهم، جميعُهم سيسافرون، ولكن، سيتمُّ توزيعُهم على الدُوَل الثلاثة، سأله بِضْعةَ أسئلةٍ إضافيَّةٍ مثل: ما هي الوظيفة التي قد تناسبه؟ هل لديه أقاربُ في أيٍّ من تلك الدول؟ هل سبق له أن سافر إلى أيٍّ من دُوَلِ الاتحاد الأوروبي؟..

Scanned by CamScanner

وبعد دقائق، أنهي (جان) الحوارَ وأخبر مازنَ أنه لن يحتاجَه لأكثرَ من ذلك.

توجَّه هيثمُ إلى مازنَ وزوجتِه وابنتِه، قائلا:

- طيّب يلّا يا جماعة علشان نتغدّى بقى، الغدا جاهز برّة. يلّا يا سلمى انتي كمان معانا.

ثم أمرَ العسكريَّ التابعَ له أن يُدخِلَ الطعامَ للمُحقِّقِينَ في غُرفةِ التحقيق.

جلسوا جميعًا في غُرفةٍ مُجاورة، أخرج هيثمُ "الساندويتشاتِ"، وزجاجاتِ البيبسي، ووزّعَهَا على الجميع، كانتْ سلمى على عَلَاقةٍ جيِّدةٍ بعائشةَ منذ أن رأتْها أوّلَ مرّة، ثم تطوَّرتْ تلك العَلَاقة سريعًا لتُصبِحَ صداقةً، فأجلستْها على حجرِها، وكانتْ تُطعِمُها بيَدِها، وتُلاعِبُها.. كان هيثمُ يُراقِبُ المَشهدَ، وعلى وجهِه ابتسامة..

رنَّ هاتفُ هيثمَ فجأةً، ليفصلَه عن هذا المَشهدِ، فالتقطَ هاتفَه:

- ألوا

حروب بيت الكتب

- ..

- أيوة يا حبيبتي إزيّك؟

- ..

Scanned by CamScanner

- لا والله، لسَّة مش عارف، غالبًا لسَّة كام يوم.

- ..

- ماشي حاضر.. مع السلامة..

أنهى المكالمةَ، فوجد سلمى تنظرُ إليهِ بجانبِ عَينِها، نظر إليها، فأشاحتْ بوجهِها، وعادتْ لعائشةَ مرَّةً أُخرى.

كان مازنُ وزوجتُه يأكلانِ في صمتٍ تام، أراد هيثمُ أن يُذيبَ الجليدَ، وأن يُخرِجَهما من حالة الصمتِ تلك، فوَجَّه كلامَه إلى مازنَ، قائلًا:

- إيه يا عم مازن، هتسافر ألمانيا يا عم يا بختك!

- حظ شو بس يا حضرة الظابط؟! و الله يوم بسوريا بِسوَى ألِف سنة برَّات سوريا، والله لولا الحرب ما كنت طِلِعتْ مِنها بنوب.. سيدنا محمد شُو قال على مكة؟ قال: «والله إني أعلم أنك خير أرض الله وأحبها إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». سوريا كتير حلوة، واللي موجود هلَّأ مُو سوريا، هي بقايا سوريا، اللي ما ما نعرف راح ترجع مِتِل الأوَّل، و لَّا لا! ما تفَكّر إنُّه نِحْنَا مبسوطين؛ إنتَ لو حكيت مع ناس تانية، راح تسمع مآسي وعذاب، عقلَكْ ما راح يقدِر يستوعِبها.

- عارف إن جوَّاك كتير، بس يعني أكيد ترتيب ربِّنا ليك خير.

- حتى لو مانو خير، نِحْنَا ما عِنَّا خيارات تانية، بس بالآخر

Scanned by CamScanner

بقول الحمد لله إنُّو بِنتي ومَرَتِي بخير. صدِّقني نِحْنَا بالرحلة هي كِنَّا عَم نموت كل ساعة. وما عَم نعرف الساعة اللي بعدها مصيرنا شُو راحِ يكُوْن! راح نكمِّل بالدنيا؟ و لَّا راح نكُون صِرنا بين يدين ربنا؟!

كان هيثمُ يَوَدُّ أن يترُكَ القِسمَ بعضَ الوقت، فالجوُّ العامُ للأقسامِ لا يروق له، ويُسبِّبُ له اكتئابًا، وربما يبدو ذلك غريبًا بعضَ الشيء؛ فعملُه كلُّه في هذه الأماكن، ولكنه يعلم أنه مُختلفٌ عنهم جميعًا.

نظر إلى سلمى قائلا:

- بقولِّك إيه، إنتي قهوتِك إيه؟

- لأ ما بحبَّهاش؛ بشرب "كابوتشينو"، أو "نسكافيه" باللبن.

- طيِّب تسمحيلي أعزِمك على "كابوتشينو"، أو "نسكافيه" باللبن؟

- على شرط؛ أنا اللي عازمَة!

- وأنا وافقت.

استأذنا من الجميع، نادى هيثمُ العسكريَّ وطلب مِنْه أن يُعِيدَ مازنَ وريمَ وعائشةَ إلى الزنازين مرَّةً أُخرى، وأخبره أنهم سيُكمِلون في الغد.

Scanned by CamScanner

خرجا من القِسْمِ، واستقلَّا سيارةَ هيثم:

- معانا الوقت كلُّه بقى، أعرف مكان قُريِّب بَسّ هيعجبِكْ أوي.

- أهم حاجة يكون على البحر..

- ما تقلقيش، هتشمّي هوا البحر مع كُلّ شَفْطِة "كابوتشينو"!

قاد سيارتَه لمُدَّةِ رُبعِ ساعة، حتى وصلا إلى قهوةٍ يعرفُها، ركن سيارتَه وترجَّلَا، دخل إلى المكان وسحب كُرسيَّيْن وجلسا، ثم طلب من النادل اثنين "كابوتشينو".

جلسَا ولم يتفوَّهْ أيٌّ منهما بكلمة. كان يتأمل عينيها، وشَعرَها، ويَدَيْها، كُلَّ شيء، كانت تقريبًا هذه هي المرة الأولي التي ينظر لها فيها بهذا التركيز.

- مالَك يا هيثم بيه؟! متنَّحُ فيَّا كده ليه؟

- احكيلي عَن نفسِك.

- هحكيلَك يا سيدي: أنا أبويا وأُمّي انفصلوا وأنا صُغيَّرة، أبويا سافر، راح بريطانيا، اتجوِّز وعاش هناك. وأُمّي قعَدِتْ بيَّا هنا، ربِّتْنِي وكبَّرِتْنِي، وأبويا بيبعتِلنا كُلّ شهر مَبلغ مِش وِحِش. لمَّا خلَّصْتُ ثانوية، دخَلْتُ آداب واتخرَّجْتُ بقى، وقعَدِتْ الدنيا تلطَّش فيَّا شويَّة، لحد ما بقيت زَيّ ما إنتَ شايف؛ بَشْتَغَل مُترجِمة فَوريَّة، بَسّ كُلّ فين وفين يعني؛ شهر شغَّالة، وشهر قاعدة في

البيت. قراية، مزيكا، خروجات، حفلات، أصحابي، كده يعني. وده باختصار قصة حياتي. آه. نسيت أقولَّك إنِّي اتخطَبْتُ مرَّة وفَسَخْتُ. بَسّ يا سيدي، وأيّ معلومات تانية، سعادتَك هتلاقيها في الجهاز عندكم. وإنتَ أدرَى مِنّي بِدَه طبعًا.

ضحك هيثمُ مِن التعليقِ الأخير، ولكنَّه لم يستطِعْ أن يُخفِيَ فضولَه لمعرفةِ المزيد عن أمرِ خِطبتِها. كانتْ عيناه تفضحانه، كان السؤالُ مرسومًا، في عينيه، وعلى وجهِه بالكامل. ولم تكنْ سلمى غبيَّةً، فلم تنتظرْ أن يسأل، فبادرتْه بالحديث قائلةً:

- طبعًا إنتَ عايز تِعْرَف حصل إيه مع خطيبي، وأنا مش هستنَّى تسأل؛ لأن عينيك سألِتْ من بدري، وأنا هجاوبَك: باختصار هيَّ شويَّة كانتْ صالونات. بَعد زَنّ مِن أُمِّي قابِلْتُه، ارتحِتلُه، اتخطبنا، هوَّ الحقيقة كان شخص كويِّس ما أقدرش أعيب فيه، بس يعني تقدر تقول الدماغ ما ركبتش مع بعضها، كل واحد ماشي في حِتَّة وبيفكَّر بطريقة. حاجات كده من اللي ما تخلِّيش العِيشَة نافعة من الآخِر، حاجات ما تخلِّيش العلاقة تدوم أكتر من تلات أربع سنين بالكتير.

- حاجات زَيّ إيه يعني؟ وإيه الاختلافات الرهيبة دي بالنسبالِك؟

- زَيّ إنه مَثَلًا اتجاهاتُه السياسيَّة مُختلفة عنّي، أنا ثورجيَّة بعض الشيء، هوَّ كنبة في نفسه كده، والحقيقة النوعيَّة دي ما بتستهوينيش.

- ممم ثورجيَّة. مش خايفة على نفسِك مِنِّي يعني؛ آخُر ترقية على قفاكي ولَّا حاجة؟!

- لا مش خايفة على نفسي مِنَّك يا هيثم.

خرجتِ الكلمةُ الأخيرةُ بثقةٍ مُتناهيَةٍ. حتى إنها صدمتْه هو. فلم يَرُدَّ عليها، ولم تُكمِلْ هي حديثَها. فقط نظرا لبعضِهما البعض نظراتٍ ذاتَ مغزًى. ثم قطعَ هيثمُ هذا الصمتَ المُحرِجَ؛ فطلب منها أن تُكمِلَ حديثَها. كان لديه فضولٌ شديدٌ ليعرفَ أيَّ نوعٍ من البناتِ هي!

- المُهم يا سيدي، بعيدًا عن السياسة يعني، أنا شخصيَّة مَرِحَة جدًّا. ما بَحِبِّش الخَنْقَة والنَّكَد وقَعْدِة البيت دِي. بَحِب أخرُج وأتنطَّط وأروح حفلات وأرقص. هو كان تقليدي جدًّا؛ يعني مثلا كل ما ييجي يخرَّجْنِي، نقعُد في "كافيه"، نِفْضَل بقى ساعتين تلاتة في وِشّ بعض كده. ومفيش حاجة جديدة بتتقال. بذمِّتَك مش حاجة تزهَّق؟!

- آه طبعًا. دي حاجة تزهَّق جدًّا.

- أقولُّه: يا فُلان يلَّا نروح حفلة "بلاك تيما". يقولِّي: "بلاك" ولا "وايت"؟ ويضحك أوي. بذِمِّتَك دي ألْشَة تتقال؟!

- دي ألْشَة زبالة. إنتي إزَّاي كُنتي مستحمله البني آدم ده؟!

- بَسّ بقى يا سيدي. فهو شخص تقليدي للغاية يعني،

Scanned by CamScanner

عايز واحدة تقعُدلُه في البيت، تقولُه أيوة ونعم وحاضر، ويخرّجها مرّة كُلّ شهر؛ يودّيها تتغدى في (أبو شقرة) ويروّحها، وديّ مش أنا خالص يعني، فلا كان هو ينفعني ولا كنت أنا أنفعُه، وطلبتُ ننفصل بهدوء، طبعًا هو حاول يمشّي الدنيا، بس الأمور ما مشيتْش، وتُونة تُونة فِرغِت الحدُّوتة.

- طيّب أنا بقول بعد الحدُّوتة اللطيفة دي، والقصة الألطف، نقوم نتمشّى شويّة على البحر ونكمّل كلام.

- لا، تقوم مين؟! إنتَ خدتْ غرَضَك مِنّي وهتقوم جري كده، مش لمّا ترشّيني إنتَ بقى على حكايتَك؟!

- تعرفِي إنّك جرئية جدًّا، بزيادة يعني..

- ودي حاجة وحشة؟

- دي حاجة لَحْفة، نكمّل كلام على البحر.

نادى هيثمُ النادلَ ليُعطِيَه الحساب، ولكنها استوقفتْه قائلةً:
"قلتِلَك أنا اللي عازمَة يا حضرِة الظابط!"

ابتسم ابتسامةً رقيقةً، ثم أعاد الأموالَ إلى جيبه مرّةً أخرى، ثم استقلّا السيارةَ وتحرّكا.

بعد أن تحرّكا، طلبتْ مِنه سلمى مرّةً أخرى أن يُخبِرَها عن نفسِه. لم يكنْ هناك الكثيرُ لديه، حكى لها عن طفولتِه العاديّةِ والمريحةِ بسببِ أن والدَهُ ضابط شرطة، لم تكنْ تُواجِهُه أيُّ مُشكلةٍ على الإطلاق، كان يتلقّى المعاملةَ الرائعةَ من الجميع،

ثم أخبرها عن إجبارِ والدِه له كي يَدخُلَ كُلِّيَّةَ الشُّرطةِ ويستكمِلَ المسيرةَ. وعن رفضِه وعراكِه مع والده حتى خضعَ له في النهايةِ وضياعِ حُلُمِه بالالتحاقِ بكُلِّيَّةِ الفنون الجميلة. وكم كان يعشقُ الرسمَ والتصوير. أخبرها عن عدمِ ارتياحِه في عملِه. ولكنه أصبح مُعتادًا عليه. يفعلُه بشكلٍ رُوتينيٍّ بحت. إضافةً إلى أن عملَه في حدِّ ذاتِه ينطوي على روتينيَّةٍ شديدةٍ في كُلِّ شيءٍ سواء في مُعاملةِ الرؤساء. أو الإجراءاتِ. أو طريقةِ العمل. أخبرها عن والدتِه التي هي كُلُّ شيءٍ بالنسبة له. هي مَنْ وقف بجوارِه. وهي مَنْ أكملتْ تربيَتَه الحَسَنَةَ بعدَ وفاةِ والدِه. وأنها هي من كانت تحنو عليه. في حين أن والدَه كان هو الجانب القاسي. ربما لم يكنْ يجدُ له عُذرًا في ذلك. وربما أن العُذرَ الوحيدَ الذي يعرفه جيدًا هو أن والدَه قد اعتاد على تلك الحياةِ. وعلى هذه المعامَلةِ بسبب طبيعةِ عملِه وطبيعةِ الناسِ الذين يتعاملُ معَهم ليلا ونهارًا. أما السبب الثاني. فهو أنه يُريدُ هيثمَ أن يكون رجلًا. ولكن. لطالما اختلف هو وأُمُّه على هذه المعامَلة وعلى هذه الأسباب.

دومًا ما كانتِ الأُمُّ تقولُ أن المعامَلةَ القاسيةَ لن تجعلَه رجلًا. بل ستزرع بداخلِه قسوةَ القلب. وأن هناك طُرُقًا أُخرى كي يُصبِحَ رجلًا. مثل أن يُربيَه على الأخلاقِ الحميدةِ. عدمِ الكذبِ والخيانةِ والسَّرِقةِ. وما إلى ذلك.

كانتْ أُمُّه تربيةً أزهريَّةً. فكان جَدُّ هيثمَ لأُمِّه شيخًا بالأزهر. وبالتالي. كانتِ النزعةُ الدينيَّةُ لديها أعلى من والدِه. ربما أثَّرتْ هذه

Scanned by CamScanner

عليه بعضَ الشيءِ في عمله.

يتذكَّرُ هيثمُ أن أُمَّه قد حكتْ له ذاتَ يومٍ أن أباه ضرب مُتهمًا لديه، حتى كاد يلفظُ أنفاسَه. وعندما عاد للمنزل كان مهمومًا للغاية، وبعدَ مُحاولاتٍ مُستميتةٍ من الأُم، حكى لها عمَّا حدث. تحدَّثتِ الأمُّ مَعَه من الوازع الديني الذي لم تكنْ تعرفُ أن له هذا التأثيرَ الهائل، وبعد أن تحدَّثا مُطوَّلًا في الأمر، كانتِ الجملةُ التي حَسَمَتْ كُلَّ شيءٍ لديه: "كما تَدِيْنُ، تُدَانُ".

ثم أتتِ اللحظةُ التي تهمُّ سلمى. لم تكن مُهتمةً فعلا بسماعِ كُلِّ ما قالَه. أو، ربما، ليس هذا هو ما تُريدُ سماعَه. ولذلك أنصتتْ جيدًا عندما تطرَّقَ لقصةِ الحُبِّ الوحيدةِ في حياته: نيرمين.

أخبرها بشأن فتاتِه الراحلة، وحكى لها القصةَ كُلَّها، ولكنه لم يذكرْ رَنَا نهائيًّا. لم يعرفْ لماذا لم يحكِ لها عن رَنَا. هل لأنه لم يحسمْ بعدُ مصيرَه مع رَنَا، فلم يُرِدْ أن يضعَ حاجزًا بينَه وبينَ سلمى، ولكن.. أيُّ تفكيرٍ هذا؟! سلمى هذه لم يَرَها سوى صباحِ هذا اليوم. حاولَ أن يُبعِدَ هذا التفكيرَ المخبولَ عن رأسِه.

إلَّا أن عينيه قد دمعتَا عندما تذكَّرَ حبيبتَه القابِعةَ في قبرِها. لم يكنْ لدي سلمى شيءٌ لتقولَه. خانتْها الكلماتُ والتعابيرُ، صمتتْ سلمى تمامًا. لم تُردْ أن تقطعَ عليه هذه اللحظة. فكَّرَتْ أن تفتحَ مَعَه أيَّ حوارٍ آخرَ حتى تُلهِيَه عن هذه الذكريات، ولكنها فضَّلَتْ ألَّا تتدخَّلَ في هذه اللحظة بالذات. فظلَّا صامتَين.

Scanned by CamScanner

حتى ذهبَ كلٌّ إلى مكانِ إقامتِه.

***

لم يكن لديهم وقتٌ كثيرٌ ليُضيّعوه، فبدأوا في ساعاتٍ مُبكّرة من اليوم التالي.. يومٌ آخرُ من المعاناة.

دخلَا إلى القِسْم، اتخذ كلٌّ مَوضِعَه، واستعدُّوا لقصةٍ أخرى ربما تكون أكثرَ مأساوية، أو أقلّ، إلّا إنهم يُدركون جيدًا أنها قصةٌ يَوَدُّون أن يستمعوا لها؛ ليأخذوا منها عِبرةً ما، ليحمدوا اللهَ على ما هم فيه.

- إيه الأخبار؟

- كُلُّه تمام يا هيثم بيه.

فنظر إلى سلمى قائلا:

- سلمى، إنتي جاهزة للي بَعدُه؟

- أنا تمام سعادتَك.

- طيِّب سعادتِك محتاجة تشربي حاجة؛ علشان هنقعدي ترغي كتير؟

- لا أنا تمام، ربّنا يعينّا بَسْ على وجع القلب اللي هنسمعه!

- ياربا

جروب بيت الكتب

ينظر هيثمُ إلى الأمينِ طالبًا مِنه أن يُدخِلَ الشخصَ التالي.

تدخل روان بهدوءٍ وسَكِينَة. ويدخل معها شابٌّ صغيرٌ تقريبًا في السادسةَ عشرةَ من عُمُرِه. تقفُ على باب الغُرفةِ. وتُلقِي نظرةً على مَنْ بها. يقف هيثمُ مُرحِّبًا بهما. مُحاوِلًا التهدِئَةَ من رَوعِهما؛ طلب منهما أن يجلسا. عرَّفَهُما بالمُحقق وبسلمى وبنفسِه. ثم ترك الحوارَ للمُحقِّق. وجلسَ ليستمع..

***

نظر المُحقِّقُ لهما بابتسامةٍ عريضةٍ. سألهما الأسئلةَ النقليديَّةَ؛ الاسمُ والسنُّ والعُنوانُ القديمُ. وما إلى ذلك. ردَّتْ روان بصوتٍ مُنخفضٍ على جميع الأسئلة. وعندما سألها عن الشاب الذي معها. قالت بأنه أخوها الصغير الذي خاض مع أُختِه الكُبرى رحلةً؛ من أعماقِ سوريا. حتى جزيرةِ (نيلسون) في الأسكندرية.

فنظر لها المُحقِّقُ قائلا:

- طيِّب مُمكِن تحكيلنا بالظبط ليه خرجتم من سوريا؟ وإيه اللي حصل من أول ما خرجتم لحد ما وصلتم هنا؟

***

جروب بيت الكتب المصرية

Scanned by CamScanner

حصري لجروب بيت الكتب

٢

كانتِ الحياةُ قبلَ اندلاعِ الثورةِ جميلةً وهادئةً. فقط الشوارعُ مُزدحِمةٌ بهؤلاء الكادحين. الذين يذهبون إلى عملِهم صباحًا، ويعودون في المساء. الجميل هو هؤلاء العاشقون الذين يُمكِنُ أن تراهم إذا تمشَّيتَ في الشوارع قليلًا. يُدخِلون السعادةَ إلى قلبِك. يُشعِرونَك ببعض الأمل. وكُلَّما رأتْهم. تنظرُ إلى يَدَيها. جفَّتْ يَدُها من بَعدِ رحيلِ (نَيِّر). حبيبِها الأولِ والأخيرِ. رُوحِها التي تعيشُ بينَ جَنَبَاتِها. سرِّها. وعلانيَّتِها. نَيِّرُ هو النورُ الذي أتاها في أَحْلَكِ عُصور الظلام. بعدَ اشتياقٍ ولَوعةٍ داما طويلا.

جفَّتْ يَدُها من بَعدِه. فلم تَعُدْ تَمَسُّ يديه الخشنتَين من العمل. كان نَيِّرُ يعمل في البناء. أحد هؤلاء الذين تعمل الشمسُ على رؤوسِهم. وتُهلِكُ موادُّ البناءِ الخشنةُ أيديَهم. كانت تعشقُ التشقُّقَاتِ التي تراها يوميًّا في كفِّ يَدَيْه. كانت تراها أجملَ من الكثير من الأيادي الناعمة. وعندما يُمسِكُ يَدَها. كانتْ تشعرُ أنها تُمسِكُ الدنيا في قبضتِها الصغيرة.

ولكن. أين هو الآن؟ ابتلعتْه بلادُ الغُربةِ. ابتعلتْه ألمانيا بكُلِّ

ما فيها من تَقدُّمٍ وحَضَرٍ ورُقيٍّ وعِلم. لم يكن لديه بديل: خاصَّةً في أيام الثورة الأولى. كان الوضع مأساويًا. فهو عاملُ بناء. وبعدَ الحربِ أصبحَ كلُّ شيءٍ خرابًا ودمارًا. لم يَعُدْ هناك مكانٌ للبناء. ولم يَعُدْ هناك عمل. لم يَعُدْ هناك مَنْ يقبلُ بتوظيف المزيد من الأشخاص.

كان يومُ سفرِه يومًا كارثيًّا. بكتْ طويلًا. انتحبتْ وكأنها فقدتْ قلبَها. كان الفراقُ صعبًا عليهما. ولكن. كان لابُدَّ مِنْه. وَعَدَها بأن يأتيَ بها بأسرعِ وقتٍ مُمكنٍ. وَعَدَها بأنها لن تمكُثَ في سوريا كثيرًا. كان الأمرُ مُرعِبًا. وكان يخشى عليها حقًّا. فلا أحد يدري ما الذي ستأتي به الأيامُ القادمة.

«نذيرُ الموتِ». هذا هو الاسمُ الوحيدُ الذي يُمكِنُ أن يُطلَقَ على ما كان يحدثُ يوميًّا. تلك القذائفُ البَشِعَةُ التي تتساقط على الرؤوس. تخطفُ حياةَ هذا. وتجرحُ هذا. وتُشوِّهُ ذاكَ. وتبترُ ساقَ شابٍّ أو يَدَ طفلٍ يلعبُ في الشارع في الوقت الخاطئ؛ تُدمِّرُ نفسيَّةَ مَنْ تُدمِّر. وتُودِي بحياة العشرات. أو. ربما تَدُكُّ بُيوتًا بأكملِها على مَنْ فيها.

أصبحَ التحرُّكُ خُطوةً واحدةً خارجَ عتبةِ البيتِ أمرًا مُريعًا. محفوفًا بالمخاطر. وحتى المكوثُ في المنزلِ ذاتِه. أصبح أمرًا يَحُثُّ على الخطر. فتلك القذائفُ لا تُفرِّقُ بينَ راكبٍ أو سائر. بينَ منزلٍ أو سيَّارة. بينَ طفلٍ أو شيخ. لا تعرفُ سوى التدميرِ والقتلِ. والدم.

وربما تكون نائمًا. وتستيقظ فجأةً على صوت انفجارٍ هائلٍ يَهُزُّ

Scanned by CamScanner

أرجاءَ المِنطَقةِ كُلِّها.

تذكرتُ روان جيدًا أن لها صديقًا كان يمتلِكُ مكتبًا هندسيًّا في شارعٍ آمنٍ بعضَ الشيء. انتقل للعَيْش فيه بعدَ أن دَمَّرَتِ القذائفُ منزلَه. ولحُسن حظِّه، لم يكن مُتواجدًا حينئذٍ، فأصبح محلُّ عملِه هو مأواه الوحيد الذي تبقى له.

فمنذ اشتعالِ الحربِ بينَ النظامِ والمُعارضة، والخاسرُ الوحيدُ والأكبرُ هو الشعب، الشعبُ الذي لا يهتم سوى بلُقمَةِ العَيْش، الشعبُ الذي يُريدُ أن يعيشَ حياة هادئة. وحتى لمّا خرج في ثورةٍ، فكانت رغبتُه الوحيدةُ هي الإصلاح، أن تَؤولَ الأمورُ إلى الأفضل، أن يعيشَ الشعبُ حياةً كريمةً، أن يعيشَ الناسُ كسائرِ الأُمَمِ الأُخرى، في هدوءٍ وكرامة. ولكن، منذ أن أعلن الطرفان أن أحدَهما باقٍ والآخرَ زائلٌ، ولم تتوقفِ القذائفُ والقنابلُ عن السقوط على رؤوسِ الجميع.

بالطبعِ كانتِ الغَلَبَةُ في البداية للنظام، فهو مَنْ يمتلكُ السلاحَ الأقوى، والمعارضةُ لا تمتلِكُ سوى ما تستطيع التحصُّلَ عليه من عِدَّةِ جهاتٍ تزعمُ أنها تُموِّلُها ضِدَّ نظامٍ بشَّار. أصبح النظامُ أكثرَ توحُّشًا، وشاعتْ أخبارٌ عن استخدامِه للعُنصرِ الكيميائيِّ في القذائف، وهو ما لم تتوانَ المُعارضةُ عن الردِّ عليه، وقرَّرَتْ أن تستخدمَ قذائفَ «الهاون»، والتي لم تتوقَّفْ يوميًّا عن السقوطِ على رؤوسِ الأشهاد، حتى باتتْ أرقى الأحياءِ مُجرَّدَ رُكامٍ، وبقايا منازلَ مُهدَّمَةٍ، ورمادًا. الأمرُ الأسوأُ أن هذه القذائفَ غيرُ

Scanned by CamScanner

قذيفةٍ بالمرَّة. وبالتالي، لم تكنْ تسقطُ فقط على الهدفِ المَرْجُوِّ، ولكنها كانتْ تتساقطُ لتحصُدَ حياةَ الطفلَ والشيخَ والرضيعَ والرجلَ والمرأةَ والجميعَ، دونَ تمييز.

شعرتْ روانُ أن نَيِّرَ قد اتخذَ القرارَ الصحيح. لم يكنْ قد قطعَ التواصُلَ معها. كان يتصلُ بها بشكلٍ شِبْهِ يَوميٍّ. ولكن، مع اشتدادِ الحرب، انقطعتِ الاتصالاتُ لفتراتٍ طويلة، ولم يكنْ بتمكنُ من الوصولِ إليها سوى على فتراتٍ بعيدة.

كان نَيِّرُ في قرارةِ نفسِه مرعوبًا؛ يخشى أن يتصلوا به يومًا ويخبروه أن قذيفةً سقطتْ، فأنهتْ حياةَ روان معَها. لم يكنِ استقرَّ بعدُ حتى يتمكَّن من أن يُرسِلَ لها. كان الاتفاقُ أن يُوكِّلَ أحدَ أقربائِه ليعقِدَ قرانَه عليها، ثم تسافر هي إليه. إلَّا أن الأمورَ تأزَّمتْ قليلًا معَه منذ أن وصلَ ألمانيا. فلم تكنِ الحياةُ رديَّةً كما كان يظن. وبالتالي، بقِيَتْ روان، وبقي هو هناك، على أملٍ بلقاءٍ لا يبدو أنه قادم.

أصبحتِ الأصواتُ الصاخبةُ مألوفةً لأغلب السوريِّين. أصبح من العاديِّ أن تسمع انفجارًا هنا أو صريخًا هناك. لم يَعُدْ هذا أمرًا مُزعِجًا أو يثيرُ الانتباه.

لم تَعُدْ دِمَشقُ مدينةً آمنةً. فبعدَ أن قرَّرَتْ قوَّاتُ المعارضةِ وقوَّاتُ النظامِ نقلَ المعركةِ لوَسَطِ المدينة، لم يكنْ لدى الكثير من قاطنيها خيارٌ آخرُ سوى الرحيل.

Scanned by CamScanner

وهناك البعضُ قرَّرَ الرحيلَ من البلادِ بأكملِها. وليس فقط دِمَشق: جزءٌ قرَّرَ أن سوريا لم تَعُدْ تصلح للحياةِ الآدميَّة. وأن ما ثاروا له ليس سوى أوهام. وأن الثورةَ لم تُصلِحْ. بل دمَّرَتْ كُلَّ شيء. وأن الصراعاتِ السياسيَّةَ هي التي تُسيطِرُ على الساحةِ الآن.

***

وفي خِضَمِّ كُلِّ هذا. كانت روانُ تعيش حياةً بائسةً. فقد فقدتْ والدَها في إحدى هذه القذائف الطائشة. ولم يتبقَّ لها سوى أُمِّها وأخيها.

كانتْ ألمانيا قد أعلنتْ في وقتٍ قريبٍ أنها فتحتْ بابَ الهجرةِ للسوريِّين الراغبين في اللجوء. وأعلنتْ أنها ستستقبلُ عِدَّةَ آلافٍ لا أكثر. شعرتْ روانُ أن هذا هو الملجأ. شعرتْ أنها أخيرًا وجدتْ ضالَّتَها. لماذا ستمكث في سوريا أكثر من ذلك؟! ما الداعي؟!

عادتْ روانُ من عملِها. وجَرَتْ إلى والدتِها وهي تبتسم:

- إمِّي. الفرصة إجَتْ لعَنَّا. يلَّا نقدِّم أوراقنا؛ مِنشَان الهجرة على ألمانيا.. ما راح تتوفرلِنا فرصة أحسن من هِي..

- بتفكِّري أنا فيني سافر. أو فيني حيل سافر أصلًا وأتشحطط وأروح و آجي؟! يا بنتي أنا عمري ستين سنة؛ خَتْيَرْت. وانتي عارفة مَرَضي. وبعدين يا روان أنا هيك هيك ميتة. لو ما مِتِتْ بقذيفة. راح موت بالسرطان. قِلّك شِي: خِدي أخوكي وروحوا إنتوا الاتنين قدِّموا. واتِركُوني أنا هون. واللي كاتبلي ياه ربِّنا أنا

Scanned by CamScanner

رضيانة فيه.

- لا يا ماما. شُو يعني اتركِك هُون. ما بِصِير! شُو مَعناتُو هاد الحكِي؟ أروح من غيرك؟!

- روان، اسمعي كلامي، وروحي اسألي وشوفي شُو بِدْهُون للهجرة. ويلّا اتركيني نام.. خِلِص العُمُر.. اللي جاي إِلِك ولأخوكي. أما أنا، ما راح أترِكْ أرضي وبلدي أنا قضيتْ كُلّ عمري هُون، ومبسوطة إني راح مُوت هُون، وراح يكون قبري هُون ومَدفني هُون. ما حدا راح يطالعنا من أرضنا بالغصب!

تركتْها روانُ وخرجتْ، فتحتِ التلفازَ فلم تجِدْ فيه سوى أخبارِ القتلِ والدمار، والتي تشهدُها بأُمّ عينِها يوميًّا. لم تَعُدْ ترى الكثيرَ من أصدقائِها، الكثيرُ منهم رحلوا، كلٌّ إلى وجهةٍ مُختلفةٍ، وإلى بلدٍ مُختلفة؛ كلٌّ يبحثُ عن المكانِ الآمِن. لطالما كانتْ تسمعُ والدتَها تَتْلُوْ:

«أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»

ولكنها كانتْ تُؤمِنُ بمبدأ السَّعْي، السَّعي نحوَ الأفضل؛ أن نفعلَ كُلَّ ما بوُسْعِنا، وأن نبذُلَ قُصارى جَهدِنا، وأن هذا لا يتنافى مع الآيةِ التي تتلوها أُمُّها ليلًا ونهارًا.

كانتْ روانُ قد حَسَمَتْ أمرَها، لن تُغادِرَ دونَ أُمِّها، هكذا انتهتْ

الجدلَ الدائرَ بداخِلِها. لن ترحل. ستبقى هنا. لن تَترُكَ أُمَّها لتموتَ هنا وحدَها. ستموتُ وهي تحتضِنُها. وهي تُقبِّلُ يَدَها.

بعدَ شهرٍ من الانقطاع. جاءها اتصالٌ من نَيِّر. كان يعرفُ كُلَّ ما يجري من الأخبار. طلب منها أكثرَ من مرَّةٍ أن تأتيَه. طلب منها أن يتمَّ عَقْدُ القرانِ. وأن تُسافِرَ إليه؛ ليعيشا معًا.

أخبرها أن أمورَه استقرَّتْ بعضَ الشيء. وأنه وجد عملًا بدخلٍ ثابتٍ. أخبرها كم أن الحياة جميلةٌ ومُمتِعةٌ. وأنه لا ينقصُه سوى وجودِها. ولكنَّ ردَّها كان واحدًا:

- نَيِّر. أنا ما راح إتْرِك إمِّي وأخي الصغير هون. اللي مالو خير بأهله. مالو خير بحَدَا. أنا بُحِبَّك كْتِير. إنتَ الهوا اللي بتنفَّسُه. بس لو تركتُون وجيت عندك. ما راح كُون مِرتاحة وأنا عارفة وضُعُون.

كان ردُّها قاطعًا وحاسمًا. أغلقتْ أمامَ نَيِّرَ كُلَّ الفُرصِ والآمال. ولكن. بقِيَ حُبُّه في قلبِها. وحُبُّها في قلبِه. ولم يُغيِّر هذا الحبَ شيءٌ. وإن استطاعتِ القذائفُ أن تنتزِعَ أرواحًا من أجسادِها. فلن تستطعَ أن تنتزِعَ حُبًّا استقرَّ في الوجدان والقلب والروح.

***

كان هذا هو رمضانُ الثاني لروان وسطَ الحرب. كان التعبُ يشتدُّ على والدتِها شيئًا فشيئًا. وهي تذهب للعمل صباحًا. وتعود في آخر النهار ويكاد ما تَكْسِبُه يكفيهم.

Scanned by CamScanner

وبينما كانتْ جالسةً في بيتِها في إنتظار أذان المغرب، وفي يومٍ غيرِ معلومِ الملامح، سمعتْ طَرْقًا قويًّا وسريعًا على باب المنزل. انتابها الهَلَعُ والخوف. فطرقاتٌ مثل هذه، في هذه البلد، وفي هذه الظروف، كفيلةٌ بأن تُخيفَ أيَّ شخص، جَرَتْ ناحيةَ البابِ لفتحِه، وجَرَتْ أُمُّها وأخوها للخارج، وكان الجميعُ في حالةٍ من الهَلَعِ التام، وبمُجرَّدِ أن فتحتُه، إذ بشابٍّ يدفعُها داخلًا، ويغلق الباب.

وقبل أن تبدأ في الصُّراخِ، كان قد أشْهَرَ سلاحَه في وجهِها.

نصلَّبَ الجميعُ مكانَه، لم يتحرَّكْ أيٌّ منهم، كان الشابُّ يلهث وبقوة، وينظر حولَه لعله يجدُ مَخرجًا للفرار، بدا أن أحدَهم بُلاحِقُه، أو شيءٌ من هذا القبيل. كان الجميعُ في حالةٍ من الرعب التي لم تسمحْ لهم بالاستفسار.

أشار لهم بألَّا يتحدَّثَ أيٌّ منهم، وألَّا يتحرَّكُوا نهائيًّا.

وفي نفس الوقت، كانوا يسمعون صوتَ عرباتٍ ورجالٍ يعبثون في الشارع، وفَهِمَتْ روانُ مِمَّا سمعتْه أنهم يبحثون عن شخصٍ ما، ولم يكنْ من الصعب أن تفهمَ أنهم يتحدثون عن هذا الشاب.

ظلوا هكذا حتى مرَّتْ ساعةٌ تقريبًا، وتيقَّنُوا أن لا صوتَ في الشوارع، وأن الدوريَّةَ التي كانتْ تبحثُ عنه قد ذهبتْ.

أخفضَ الشابُّ سلاحَه قائلا:

- أنا آسف، ما كان قصدي سَوِّي ها الشِّي مَعَكُم، بَسْ ما كان عندي حل تاني.

Scanned by CamScanner

لم يَرُدَّ أيٌّ منهم عليه. إلَّا أن روانَ استجمعتْ شجاعتَها وقالت:

- وإنتَ مين؟

فرَدَّ قائلا:

- أنا مع الجيش الحر، وأنا مطلوب للنظام. النظام عم يلاحقني. أنا دوبك عرِفتْ اهرُب مِنهُون، وخبَّطتْ عليكُون، وفُتت تخبَّيْت.

لم يكنِ الأمرُ مُستعصِيًا على الفَهْم. كان كلُّ شيءٍ جليًّا. عرضتْ عليه والدةُ روانَ أن يجلس، وأن يتناولَ معهم الإفطار. كان عرضًا سخيًّا للغاية.

جلس وتناول الإفطارَ معهم بعد أن اطمئنوا له. لم يكنْ باديًا عليه أنه هذا الشخص العنيف الذي قد يقتلُ أو يسرِقُ أرواحًا. ولكن، مَنْ مِمَّنِ انضمُّوا للمُقاومةِ أراد هذا؟! وإنما أجبرتْهم الحربُ اللعينةُ على ذلك.

لم يُفكرٌ أيٌّ منهم في أن يُحدِّثَه في شأنِه، أو عن أسبابِه، ولِمَ فعل ذلك. تناولوا جميعًا الإفطارَ وبعد أن انتهى، قام هذا الشابُّ من مكانِه، شكرهم جميعًا، ثم فتح الباب، ورحل في هدوءٍ تام..

كانت إحدى صديقاتِ روانَ قد دَعَتْها لتناوُل الإفطارِ مع أُسرتِها في اليوم التالي. فأعدَّتْ روانُ وجبةَ الإفطارِ لأمِّها وأخيها الصغير، وذهبتْ إلى صديقتِها كنوعٍ من تغييرِ الأجواءِ القاتمةِ في منزلِها.

كان الحزنُ باديًا على وجوه الجميع. أصبح هو والصمت وجهين

Scanned by CamScanner

لعُملةٍ واحدة، بل هو العملةُ الوحيدةُ والرسميَّةُ في سوريا.

تذكَّرتْ روانُ أيامَ رمضانَ السابقةَ. كان رمضانُ عيدًا، بكُلِّ أجوائِه الحميميَّةِ والروحانيَّةِ. تتذكَّرُ أباها الذي اعتاد دومًا أن يفتحَ القنواتِ المِصريَّةَ ليستمع إلى الأذانِ عليها. فدائمًا ما كان يقول أنه يُحبُّ أن يستمعَ لتلاوة المشايخ المِصريِّين؛ النقشبنديِّ وعبدِالباسط.

كان الجميعُ ينتظرُ الشهرَ الكريمَ؛ ليعيشوا طقوسًا لا تكون موجودةً إلَّا بوجودِه؛ التجمُّعات العائلية، الأقارب والأهل الذين يأتون من كُلِّ حَدْبٍ وصَوْبٍ ليتجمَّعوا على مائدةٍ واحدة، الأطباق التي تذهبُ وتجيءُ طوالَ الشهرِ بينَ البيوتِ المُختلفةِ، حاملةً الأطعمةَ والحلوى المُتنوِّعةَ.

أمَّا الآن، أصبحتْ أيامُ رمضانَ تُشبهُ سائرَ الأيام، فلا الأُسَر قادرة على التجمُّعِ سويًّا كما كان في السابق، ولا حتى لدى الناسِ القدرة الماديَّة على أن تكون موائدُهم مملوءةً بالطعامِ والحلوى. فقد رمضانُ ما يُميِّزُه، كما فقد العيدُ بهجتَه أيضًا، فأصبح حُلُمَ كُلِّ سوريٍّ أن يعيشَ لليوم التالي، وألَّا يفقدَ أيًّا من أفراد أُسرته في لَمحِ البصر.

ذهبتْ روانُ إلى صديقتِها، طرقتِ البابَ، ففتح لها أبوها، رحَّبَ بها، كانتِ العائلةُ تجلس على الأرضِ حولَ طاولةٍ دائريَّةِ الشكل، كان الطعامُ مرصوصًا بنظامٍ وبشكلٍ مُنمَّقٍ، كان الصمتُ مُطبِقًا على الجميع، لم يكنْ أيٌّ منهم يتفوَّه بكلمة.

Scanned by CamScanner

أرادتْ روانُ أن تفتحَ مجالًا للحديث، فقالت للأب:

«كيفَك عَمُّو؟»

فردَّ عليها بابتسامة:

«الحمد لله يا بنتي»

دخلتْ أُمُّ صديقتِها ببقيَّةِ الطعامِ، فرحَّبَتْ بها، سألتْها عن حالِها وحالِ أُمِّها، لم يكنْ لديها الكثيرُ لتقولَه؛ فحالُهم مِثلُ حالِ الكثيرِ من السوريِّين.

أُذِّنَ للمغربِ، وبدأ الجميعُ في تناوُلِ الطعام..

بعدَ ما يُقارِبُ النصفَ ساعة، سمعوا جميعًا طَرْقًا عنيفًا على الباب. قام الوالدُ فَزِعًا ليفتحَ الباب.

دخلَ ما يُقارِبُ السبعة أشخاص في زِيٍّ مَلَكِيٍّ، لم يكنِ الأمرُ صعبَ التفسيرِ، فَهِمَ الجميعُ أنهم عناصرُ المُخابَراتِ السوريَّة، ولكن.. لماذا يأتون منزلًا كهذا؟!

ذُهِلَتْ روانُ فجأةً؛ كيف لم تَلحَظْ غيابَ شقيقِ صديقتِها؟! أين هو؟! كادتْ تسأل، ولكنها صمتتْ فجأةً؛ أدركتْ أن الأمرَ قد يعنيه، وقد تتسبَّبُ في حدوثِ مشاكلَ إن تحدَّثتْ.

دخلوا إلى غُرفةِ صديقتِها دونَ استئذان، ولم يكنْ هناك مَنْ يجرؤُ على أن يُعارِضَهم، قلَبُوا المنزلَ كُلَّه رأسًا على عَقِب، ثم دخلوا غُرفةَ أخيها، صادروا جهازَ «الكمبيوتر» الخاصَّ به، وعِدَّةَ

Scanned by CamScanner

أوراقٍ وكُتُبًا..

منذ بَدْءِ الحربِ وهم يعتبرونَ أن جميع السوريّين مُبَاحُون، وأن حياتَهم لم تَعُدْ ملكًا لهم، بل ملكًا للمُخابَراتِ السوريّة، مُستبَاحةٌ لهم وكأنها مِلكُ يمينِهم.

بعد أن انتهوا، سألوا الأبَ عن ابنِه، أنكر مَعرفتَه بمكانِه، أخبرهم أنه غادر منذ يومين، ولم يخبرْهم عن وجهتِه، كانتْ بالطبعِ روايةً سخيفةً ليُصدِّقها الضابط.

الغريبُ أنه لم يُؤذِ أحدًا، على غير المعتاد، فكان الجميع ينتظر أن يُخرِجَ سلاحَه ويضرِبَ الأبَ طلقةً في رأسِه مَثَلًا، أو أن يخطفوا الابنةَ أو روان، ولكنهم أتوا لسببٍ مُحدَّدٍ وغادروا، لم يُغادِروا لطِيبَةِ قلبِهم، أو أيِّ سببٍ من هذا القَبيل، بل غادروا ليبحثوا عن ضحيةٍ أُخرى، فلا وقتَ لديهم ليُضيِّعوه في البحثِ عن شابٍّ هارب.

عاد الجميعُ: كُلٌّ إلى مَوقِعِه. وما إن جلسوا، حتى سألتْ روانُ صديقتَها عمَّا فعله أخوها، أخبرتْها أنه انضمَّ لصفوف المُعارضة مُؤخَّرًا، وبالتالي، أصبح عدوًّا للنظام، وأنه أتى منذ عِدَّةِ أيامٍ ولَمَّ ملابسَه وكُلَّ ما يحتاجُه. حتى جهازَ «الكمبيوترِ» خاصتَه، قام بمسح كُلِّ ما كان عليه، وتَرَكَه كالخُردةِ؛ لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع.

قبل أن يُسافِرَ، ودَّعَ أباه وأُمَّه وإخوتَه، كانتْ ليلةً قاسيةً على الجميع، بكتِ الأُمُّ وهي ترجوه أن يبقى، ركع أمامَها، قبَّلَ يَدَيها

Scanned by CamScanner

وقدَمَيها، طلب منها أن تُسامِحَه وتغفِرَ له. وأن الأمرَ أكبرُ من الجميع. أخبرها أنه لابُدَّ من أن ينضمَّ للفئةِ التي يراها على حق، ولا جَدْوَى من بقائِه بجوارِهم، على حد وصفه «زَيّ النِّسْوَان». أرادَ أن يُشارِكَ في تحريرِ بلدِه من نظامٍ يراه غاشِمًا، وظالِمًا. كان قد حَسَمَ رأيَه واتخذَ قرارَه النهائيَّ، ترك البيتَ مُسرِعًا واتَّجَه إلى حيثُ يقبعُ إخوانُه من المُعارِضين.

لم يعرفوا عنه شيئًا بعدَ ذلك، ولم يروه، ويعرفون جيدًا أنهم لن يروه ثانيةً.

عرفتُ حينئذٍ روانُ سببَ الصمتِ المُطبِقِ على الجميع، لم يَعُدْ للطعامِ معنًى، ولم تَعُدْ تستطعِمُه. أرادتْ أن ترحل. شكرتُهم على الطعام، واستأذنتْ، ورحلتْ.

نزلتْ من منزلِ صديقتِها، في اتجاهِها إلى منزلِهم، وبينما كانتْ تسيرُ في طريقِها، وجدتْ ما كانت تخشاه، ولاقتْ ما لم تحْسَبْ له بالًا ولا خاطرًا، ارتعدتْ، ومادتِ الأرضُ من تحتِها، وتمنَّتْ لو انشقتِ الأرضُ وابتلعتْها..

***

سارتْ روانُ ببُطءٍ وخوف، كانت ترى الشبِّيحةَ آتين أمامَها وهم يضحكون ويضربون طلقاتٍ عشوائيَّةً في الهواء؛ بُغيَةَ إخافةِ الموجودين، وهم معروفون بقسوتِهم وانعدامِ الإنسانيَّةِ في قلوبِهم، وقِصَصُهم ومصائِبُهم مِلْءُ السمعِ والأبصار. قال

Scanned by CamScanner

إحدُهم:

«هاي هيَّ.. ناطرينها من فترة!»

سمعتُهم، ولكنها لم تفهمْ، حاولتُ أن تأخُذَ طريقًا آخرَ ولكنَّ أحدَهم لمحها، صرخ فيها أن تتوقف، فتجمَّدَتْ في مَوقِعِها خشيَةَ أن يُطلِق عليها الرَّصاصَة، اقتربوا منها، وشكَّلوا دائرةً حولَها، فقال أحدُهم: «الحلوة مطلوبة عندنا»..

قالت: «ليش؟! أنا ما سويت شي!»

نظر إليها آخرُ بنَهَمٍ وشهوةٍ قائلا:

«شو رأيك يا حلوة نلعب معك شوي قبل ما نروح؟!»

اعتراها الذعرُ والخوف، طلبتْ مِنْه أن يترُكَها تذهب، إلَّا أن أحدَهم باغتَها فجأةً وشَدَّ حِجابَها من على رأسِها، أمسكتْ برأسِها في مُحاولةٍ بائسةٍ لتغطيَةِ شَعرِها، بينما هم يضحكون، فنظر إليها آخرُ بنظرةٍ حاسمةٍ، قائلا:

«طَب يالا فوتي أدامنا بلا دوشة»

لم تدرِ ما عليها فِعلُه، كانتْ تعرِفُ ما يُريدونه تحديدًا، ولكنها حسمتْ رأيَها: تموتُ، ولكن لا يَمَسُّونَ مِنها شَعرةً..

فاقتربتْ من هذا الأخيرِ وصفعتْه على وجهِه بقوَّة، ولم تَمُرَّ ثانيتان حتى ثارَ غضبُه، فضربها على رأسِها، لتسقُطَ على الأرض مَغشيًّا عليها.

Scanned by CamScanner

لم تستفِقْ روانُ إلَّا عندما وصلوا بها إلى مكانٍ مُغلَقٍ تمامًا، أغرقوها بالمياه الباردة، وضربوها بأرجلِهم حتى استفاقت، كانتِ الآلامُ تُحطِّمُ عقلَها، جسدُها كُلُّه يُؤلِمُها بقوَّةٍ بالغة، وجدتْ نفسَها في غُرفةٍ مُغلَقةٍ، لها بابٌ واحدٌ، به شُبَّاكٌ صغير، بدا لها كالسجن أو المُعتقَلات، لم يكنْ بإمكانِها التفكيرُ في شيءٍ آخر، عندما استفاقتْ وجدتْ مَنْ يَفتحُ البابَ، لم يتحدَّثْ كثيرًا، دخل إليها، وأمسك بشَعرِها، وجَرَّها خَلْفَه، كانتْ تسيرُ في سردابٍ به الكثيرُ من الأبواب المُتشابهةِ لباب حُجرتِها المُغلقة، استطاعتْ أن تُميِّزَ أصواتَ تأوُّهاتٍ في إحدى الغُرَف، أدركتْ على الفور أنها ليستْ غُرَفًا، بل زنازين. وصلتْ إلى مكتب القائد، أدخلوها، وأغلقوا البابَ وراءَها.

كانوا قد وضعوا على عينَيها عُصابةً سوداءَ. وقفتْ وهي ترتعدُ من الخوفِ والبردِ معًا، كان يبدو من صوتِ مَنْ يتحدَّثُ أنه رجلٌ عجوز، يبدو أنه في الستينات من عُمُرِه، أو شيء من هذا القبيل. قام من على مكتبِه وسارَ نحوَها، لم يتحدَّثْ مَعَها، ولم يَقُلْ كلمةً واحدة، ما كان مِنْه إلَّا أن صفعها على وجهِها، لتسقُطَ في الأرض، قائلا: «كيفك يا حلوة؟!»

لم تردَّ، كانتْ فقط تبكي، وكانتِ الدماءُ تسيلُ من فَمِها، فأكمل قائلا:

«هلأ انتي عم تخبي عندك معارضين وإرهابيين؟ انتي قاعدة معنا هون شوي لحد ما نعرف انتي مع مين وشو علاقتك

Scanned by CamScanner

بالمعارضة وبالجيش الحر، ولّا عم تموّليهم ولّا عم تساعديهم ولا شو بالظبط.. ولوقتها رح تشرفينا هون شوي حلوين، شو رأيك افتتح أنا هاليوم الحلو؟! ».

صرختْ وهي تقول:

- أنا ما بعرف حدا وما خبيت حدا، والله ما بعرف حدا منهن!

فصفعها هذا القائدُ على وجهِها حتى أدماه. وهو يقولُ بنبرةٍ قويّة:

- لَكَن مين الولَد الي كان متخَبي عَندكُن بالبيت؟ أبوكي فاق من النرية ورجِعلكُن يا وسخة؟!

قالتْ وهي تبكي بحُرْقة:

- والله هو اقتحَمَ علينا البيت وهددنا بسلاح، وبعدا بشوي مشي، لا بنعرفه ولا بيعرفنا،ولا إلنا علاقة فيه،وحيات الله هادا إللي صار و..

ولكنه لم يتركْ لها فرصةً للحديث. تحَرّكَ نحوَها. ورفعها بيَدٍ واحدة. وشدَّ قميصَها ليشُقَّه نصفين. حاولتْ أن تُدارِيَ جسدَها بيَدَيها. حاولت أن تختبئَ خلفَ أحدِ المكاتب. ولكنه كان أقرب لها. أمسك بها وطرحها أرضًا. حاوَلَ أن يخلعَ عنها سروالَها. قاومتْه. ولكن، صفعةٌ واحدةٌ من قبضتِه القويَّةِ كانتْ كفيلةً لتجعلَها

خائرةَ القُوى تمامًا. خلع عنها بِنطالَها. وخلع بِنطالَه. نظر إليها بنَهَمٍ شديد. وكأنه لم يغتصبْ نسوةً غيرَها بالأمسِ القريب. حاوَلَتْ بِقُوَّى واهنةٍ أن تدفعَه بعيدًا. ولكنه كان ثقيلًا للغاية. صرختْ. وبكتْ. كانتْ تأوُّهاتُها تخرجُ من قلبِها وليس من حنجرتِها. وفي ذات الحين. كان العساكرُ القابعون خلفَ بابِ الضابط يضحكون. وقال أحدُهم للآخر:

«يارتني كنت مكانه والله».

فردَّ عليه زميلُه بثقة:

«وإنت ليش مستعجل هيك! دورَك جاي. صْبُورْ بس..»

انكبَّ الضابطُ فوقها كثَورٍ هائجٍ في مَوسِمِ التزاوُجِ. أمسَكَ بفخذيها وباعدَ بينَهما. وراح يعتدي عليها بوحشيةٍ. وينتهكُ ما حافظتْ عليه لسنواتٍ طويلة. سالتِ الدماءُ منها. وأتبعتْها بصرخةٍ دوَّتْ في أرجاءِ المكانِ بأكملِه. صرخةٌ لم تحملْ في طيَّاتِها فقط ألمًا جسديًّا. بل دمارًا نفسيًّا سيظلُّ مُصاحِبًا لها طوالَ العمر. لم يعبأْ هذا البغلُ بصرخاتِها. فمَسَحَ الدماءَ في ملابسِها. وانتهكها بكُلِّ ما أُوتِيَ من قوَّةٍ. حتى أفرغَ عُصارةَ جسدِه بها. وتركها مُلقاةً على أرض المكتب. عاريةً. ضائعةً. مُرتعِدَةً. ومُحطَّمةً.

لم تُقاوِمْ. لم تدفعْه. لم يكن بها قُوَّةٌ للحركة. استسلمتْ تمامًا لقَدَرٍ عانتْ مِنْهُ الكثيرُ من السوريَّاتِ بعدَ الحرب.

Scanned by CamScanner

بعد أن استفاقتْ، وجدتْ نفسَها مُلقاةً على الأرضِ عاريةً تمامًا في مكتبِه. نظرتْ إليه. فرأتْه جالسًا ببرودٍ تامٍّ ينظر في أوراقه. ثم قال لها دون أن ينظرَ إليها:

«قومي البسي يلا مشان ترجعي عَ زنزانتك».

ارتدتْ ملابسَها، وهي تحملُ كُلَّ مشاعرِ الخزي والعار.

حملها العساكرُ، وأدْخِلَتْ في زنزانةٍ أُخرى غيرِ الأولى، زنزانةٍ مُنسخةٍ، مليئةٍ بمُخلَّفاتِ الناسِ، وبعضِ الحشرات. رَمَوْهَا بالداخل وتركوها.

صرختْ روانُ بملءِ فيها. صرختْ كثيرًا صرخاتِ المكاناةِ التي لا تملِكُ سواها. كانت تلطمُ وجهَها وتجرحُ وجهَها وجسدَها بأظافرِها. ظلَّتْ تبكي، وتبكي، وتبكي.. حتى أُغشِيَ عليها.

استفاقتْ بعدَ سُويعاتٍ على صوتِ فتحِ الزنزانة. لم تكنِ الرؤيةُ أمامَها واضحةً. كانتْ ضبابيَّةً بعضَ الشيء. استيقظتْ لتجدَ الحشراتِ تسيرُ على جسدِها. فزعتْ. وحاوَلَتْ أن تُبعِدَهم عنها. ولكنهم أكثرُ من أن تُحاوِلَ رَميَهم عن جسدِها. دخل العسكريُّ إليها، ورمى لها قطعةَ خُبزٍ جافَّةً، ثم قال لها بضحكةٍ خبيثة:

«كِلي منيح، لانو ورانا سهرة اليوم»

كانتْ تسمعُ أصواتَ الشبابِ المعذَّبين في الزنزانات المجاورة. كانتْ تستمعُ إلى تأوُّهاتِهم وصرخاتِهم التي اخترقت طبلاتِ قلبِها. أمسكتْ بقطعةِ الخبز وأكلتْ منها ببُطء. كان الجوعُ

Scanned by CamScanner

يعنصرُ معدَنَها.

وفي منتصف الليلة الأولى، فُتِح البابُ، وإذ به أحدُ الجنود، اقترب منها، وحاول تقبيلَها، فرفستْه بقدمِها، لم يُفكِّرْ كثيرًا؛ فأمسك بشَعرِها، وسَحَلَها خارجَ الزنزانةِ؛ في السردابِ القابعِ بينَ الزنزانات، حاوَلَتْ أن تُقاوِمَ، ولكن، كالعادة، لم يكنْ لديها من القوَّةِ ما يُساعِدُها على ذلك. حاولتْ أن تستنجِدَ بصُراخِها العالي، ولكن، لا حياةَ لِمَنْ تُنادي.

سحبها هذا الجنديُّ إلى غُرفةٍ بها سرير، كان هناك الكثيرُ من الشبِّيحةِ الذين يحتسون الخمر، كان السُكرُ واضحًا عليهم، انتابها الذُّعرُ مرةً أُخرى، ولكن، قبل أن تُفكِّرَ في أيِّ شيء، حملها أحدُهم ورَمَى بها على السرير، وتناوبوا على اغتصابِها جميعًا، حتى أُغمِيَ عليها، وحتى بعدئذٍ لم يرحموها، بل استمروا في انتهاكِ جسدِها.

***

لم تحتملْ سلمى ما كانتْ تسمعُه وتُترجِمُه للمُحقِّق، انتفضتْ من مكانِها فجأةً وجَرَتْ تجاهَ الحَمَّام، وأفرغتْ كُلَّ ما في بطنِها، لم تكنْ تُصدِّقُ ما تسمعُه، لم يتخيَّلْ عقلُها كُلَّ ما قِيلَ من هذه الفتاة؛ أيُّ نظامٍ هذا؟! وأيُّ عنفٍ ووحشيَّةٍ ودمويَّةٍ تلك؟!

خرجتْ من الحَمَّامِ لتجدَ هيثمَ أمامَها، نظرتْ إليه، ونظر إليها، لم يتحدَّثا، كان يفهم ما يحدث وما يدور بخُلدِها، لم تقفْ معَه

Scanned by CamScanner

كثيرًا. جَرَت من أمامِه تجاهَ غُرفةِ التحقيق.

نعرفُ أن ما فعلتُه خطأٌ من الناحيةِ العمليَّةِ والمِهَنِيَّة. ولكن، من الناحيةِ الإنسانيَّةِ كان الأمرُ فوقَ احتمالِها كبَشَر، وكامرأة.

دخلتِ الغُرفةَ واعتذرتْ عمَّا بَدَرَ منها للمُحقِّقين، لم يُبدِيا أيَّ انزعاجٍ على الإطلاق. حتى إنها لمَّا عادت، وجدتِ المُحَقِّقةَ الأُخرى تمسحُ دموعَها بمنديل..

***

ذكرتْ روانُ أن الاغتصابَ ليس هو السلاح الوحيد ضد النساء، بل كُنَّ يُصْعَقْن بالكهرباء، يرمون عليهنَّ المياهَ المُثَلَّجَةَ في برد الشتاء القارص، كُلُّها أساليبُ وحشيَّةٌ وساديَّةٌ، مُورِسَتْ ضِدَّها وضِدَّ كُلِّ مَنْ كانوا في السجن، سجن (عدرا).

ثم نظرتْ روانُ إلى المُحَقِّقِ وقالتْ:

- في مرة من المرات حاولوا يغتصبوني مِتِل كُل مرة، بس فشلوا. كانت مقاومتي إِلْهم أقوى ها المرَّة، بس لمَّا ضربوني حطيت إيديا على رجلي وحطيت راسي على كعوب رجلي مِتِل الجنين، نادى الضابط على العساكر، وأخدوني في أوضة، كلبشوا إيدي ورجلي بعيد عن بعض، واغتصبني حوالي عشر جنود ورا بعض، مش هتستغربوا لو قِلْتِلكُن إني ما كنت عَم اتكلّم، وما عَمْ بَحكِي ولا كلمة، حتى ما كنت بَصْرَخ، ولا عَمْ بَحْكِي بالمرة، ساكتة ومستسلمة، ما قدرت أقاومهم،

وهمَّ رابطيني من كل إرنه (مكان). ضلّيت ساكنة وهمَّ بيغتصبُوني. كل واحد فيهم يرمي وَسَخُه ويقوم. وبيجي رفيقُه يرمي جوّايا وَسَخ غير اللي قبله ويقوم. ما عَمْ إتخيَّل إنه عشرة ورا بعض عَمْ يعملوا هِيْك. وبعد ما خلصوا. فكّوني ورَمُوني بالحَبس. بس كانت ها المرّة غير كِلّ مرّة. ها المرّة قرَّرتْ إن خلاص هيكِ الدِّنيا ما عاد فيها أيّ معنى. كانوا عَمِ يموِّتوني كِلّ يوم ألِف مرّة. بس بعرف إذا انتحرت هموت كافرة. بس ضلّيت صابرة إن الله مانو راضي بها الشّي. وما راح موافق على كِلّ ياللي عَمْ يِسَوُّوه مَعنا. فكّرت أنتحر. بس بِدّي إياهم هُمَّ اللي يقتلوني. مو أنا اقتل حالي. فكنت عَمْ سُبّ الظالم بشّار. بس ما كانوا بِدْهم يقتلوني. كانوا بِدْهم يغتصبُوني يوم بعد يوم.

وفي يوم فُقْت من النوم. طلبتْ مَيْ. جابولي كاسِة مَيْ صُغِيرة. قرَّرت صَلّي صلاتي الأخيرة. وأستغفر اللهَ مِن ياللّي عَمْ يعملوه فيَّ. دعيت الله كتير إنه ياخِد روحي مِنّي. كنت عَمْ قرِّرْ أنتحر. وكنت عَمْ فَكِّر كيف بِدّي أنتحر. خلاص ما عاد في داعي ضَلّ أكتر من هِيك. بس الشي الغريب إن لمّا أخدوني ها المرّة ما لقيت نفس المعاملة. ولا نفس الناس. لقيتهم أخدوني على مكتب الضابط ياللّي استقبلني في الأول. إطلّع فيَّ بمنتهي السخافة. وقالّي إنهم خلصوا. وما كان فِي إلِيْ أيّ تُهَم. وفِيني إطْلَع اليوم.

ستون يوم. ستون يوم في سجن العدرا. ستون يوم اغتصبوا فيهم جسمي وروحي يوميًّا. ستون يوم لا أهلي يعرفوا عنّي شي.

ولا أعرف عنهم شي. ستون يوم قتلوا جوَّايا كِل حاجة جميلة في الحياة.

خرجتْ روانُ من مَحبسِها، لتجدَ أن أُمَّها تُوُفِّيَتْ حُزنًا عليها؛ بعد أن ظنَّتْ أنها ماتتْ. وجدتْ أخاها الصغيرَ قد انتقل للعَيشِ مع صديقتها وعائلتها. لم تبكِ روان. فقد فقدتِ القدرةَ على البكاء أو الحزن أو الشعور بالألم. أربعون يومًا جعلوا منها كائنًا آخرَ، ولم يكنْ لديها أيُّ أملٍ في الحياة. سوى أملٍ واحدٍ فقط. تَبِّر.

قرَّرَتْ أن تُهاجِر. لم يكنِ الأمرَ يحتاجُ إلى الكثيرِ من التفكير. حزمتْ أشياءَها، وأخذتْ أخاها وانطلقتْ في رحلةٍ طويلةٍ إلى المجهول..

***

أنهتْ روانُ حديثَها، لينظرَ المُحقِّقُ لأخيها؛ طالبًا مِنه أن يروِيَ ما تمَّ معَه.

فذكر أنه يوم أن تم القبض على روان، أتى الجنود إلى المنزل في نفس اليوم، وقبضوا عليه لنفس السبب.

ذكر إسلامُ أنه في اليوم الأولِ لوُصولِه، تم اقتيادُه إلى زنزانةٍ مُنفردةٍ، طولُها متران، وعرضُها مترٌ، يوجد فيها أربعةُ مُعتقَلين، وكان هو خامسَهم، كانوا يُضطرُّون الى إغلاق فُتحَةِ المِرحاض، الموجودةِ داخلَ الزنزانة؛ لكي يناموا فوقَها بسبب ضِيقِ المكانِ الشديد.

وفي مساء هذا اليوم، استُدعي إلى جلسة التحقيق الأولى، وتم تعذيبُه بطريقةٍ بشعة، وضُرِبَ في جميعِ أنحاءِ جسدِه بِعَصاً خشبيَّةٍ غليظةٍ.

وجَّه له المُحَقِّقُ تُهمةَ التَستُّرِ على أحد أفراد المعارَضة.

ضُرِب لمُدَّةٍ تقرُبُ الثلاثَ ساعاتٍ، ليعترفَ بهذه التُّهمَةِ المُوجَّهةِ له، ولكنه لم يعترفْ.

بدأ إسلامُ يُعاني من مشاكلَ صحيَّةٍ وجسديَّةٍ بسببِ سُوءِ المُعاملةِ والتعذيبِ وقذارةِ الزنزانة. لكن، لا حياةَ لمَنْ تُنادي.

وتعرَّضَ مِرارًا وتَكرارًا للضربِ بشكلٍ مُبرح، والإهانةِ بشتَّى الألفاظ، حتى إنه كان يُستدعى للتحقيقِ بهدف تعذيبِه دونَ توجيهِ سؤالٍ واحدٍ له!

وبعدَ مرورِ أُسبوعين في فرع الأمنِ العسكريِّ، تم نقلُه إلى الشُّرطةِ العسكريَّةِ في مُحافظةِ (حماة)؛ كأوَّلِ محطةِ إيداعٍ له، حيث علم لاحقًا أن فرعَ الأمنِ العسكريِّ في مُحافظة دِمَشْقَ قد قام بطلب نقله إليه.

عند دخوله للفرع، فُوجِئ بكمية الأوساخ والروائح الكريهة الموجودة فيه، وانتشار الأمراض بشكل كبير بين المعتقلين، دخل إلى زنزانة ضيقة يوجد فيها حوالي ٢٧ شخصًا، وكانت لديه «بلاطة» واحدة ينام عليها جالسًا.

وعندما انتقل لهذا الفرع، تغيَّرتِ التُّهمةُ المُوجَّهةُ له؛ من

Scanned by CamScanner

التستُّر على شخصٍ مُعارضٍ، إلى انضمامِه لجبهةِ النُّصرَة.

وبعدَ مُضيِّ أُسبوعين آخرين، في فرع ٦٠٠، تم تحويلُ إسلام الى النيابة العامة بدِمَشْق، ثم إلى محكمة الإرهاب بدِمَشْق، ليتمَّ نقلُه الى الشُّرطةِ العسكريَّةِ في (القابون)؛ كمحطةِ إيداعٍ قبلَ نقلِه الى سجن (عدار)؛ حيث يُحاكَمُ أمامَ محكمة الإرهاب. لكنَّ مسئولي السجن رفضوا استقبالَ إسلام؛ بحُكْمِ أنه لم يبلغِ الثامنةَ عشرةَ من العمر.

وتمَّ بعدئذٍ تحويلُه إلى النيابة العامة، ثم الى القصر العدلي في دِمَشْق، ليُعيدوه مرَّةً أُخرى إلى الشُّرطةِ العسكريَّةِ في (القابون)؛ انتظارًا لمُحاكَمَتِه التي طالتْ في خِضَمِّ التنقُّلاتِ والانتظار!

وبعدَ أيامٍ من المُعاناة، أفرجَ عنه القاضي لعدم ثبوت أيِّ جُرمٍ بحقِّه، ليخرجَ إسلامُ من القصر العدلي بدِمَشْقَ بعدئذٍ، عازمًا على الرحيل.

***

لم يكنْ هناك داعٍ لأن يُكمِلا حكاينهما، فتقريبًا القصة واحدة: المهربون والمركب والبحر، وخاصة أن كُلَّ مَنْ سيجري التحقيقُ معَهم، أتوا في مركب واحد.

Scanned by CamScanner

فضَّلَ المُحَقِّقُ ألا يستمع للجزء الأخير من القصة؛ حفاظًا على الوقت، حتى يتسنى له أن يُقابِلَ عددًا أكبرَ من المُحتَجَزين.

سألها إن كان لها أقاربُ في أيٍّ من تلك الدُوَل، فأخبرته أن خطيبَها نَيِّرَ في ألمانيا كما رَوَتْ له، وأنها تُفضِّلُ الهجرةَ إليه. أخبرها أنه سيبذل أقصى ما في وسعِه لتحقيقِ مَطلبِها.

أحضر لهما هيثمُ طعامَهما، وتركهما حتى انتهيا، ثم اصحطبهما العسكريُّ إلى محبَسِهما مرَّةً أُخرى، لينتظرا مصيرًا طال انتظارُه، حتى ظنَّا أن السجنَ هو الملجأُ والمآلُ الأخير..

حروف بيت الكتب

Scanned by CamScanner

٣

كان هيثمُ قد أنهى اليومَ بعدَ أن استقبلَ تلك الفتاة، التي لم تغِبْ عن ذهن سلمى طوالَ اليوم، بل طوالَ رحلة العمل بأكملِها؛ نظراتُها، همساتُها، إيماءاتُها، كلُّ حركةٍ ودمعةٍ ونبرةِ صوتٍ صدَرَتْ عنها، كان كُلُّ هذا في وجدانِ وعقلِ سلمى.

ما أقسى التجربة التي عاشتْها تلك الفتاة! ما أصعبَها على النفس! كيف لفتاةٍ أن تتحملَ كُلَّ ذلك؟!

كاد عقلُ سلمى أن يُجَنَّ وهي جالسةٌ وحدَها في غُرفتِها بالفندق، كان هيثمُ قد عرض عليها الخروجَ ليلًا ليتناولا العشاءَ سويًّا؛ في مُحاولةٍ لفَكِّ بوادرِ الاكتئابِ التي كانتْ تُطِلُّ من عينيها، ومن قلبه، ولكنها رفضتْ بشِدَّة. لم ترفضْ بسببِه، كانت نفسيَّتُها مُحطَّمةً، لأول مرَّةٍ تشعرُ بكُلِّ تلك الأحاسيس القاسية معًا في آنٍ واحد، حتى إنها بَكَتْ في طريق العودة إلى الفندق، حاول هيثمُ أن يفهم مِنْها سببَ بُكائِها، ولكنها لم تكنْ قادرةً حتى أن تُخرِجَ من فمِها كلمةً واحدة، ففضَّل أن يترُكَها علي راحتِها.

Scanned by CamScanner

وبينما هي جالسة في غرفتها تتابع الأخبارَ والقنواتِ المختلفةَ، رنَّ هاتِفُها برسالةٍ قصيرة، فتحتُها، لتجدَ هيثمَ أرسلَ قائلا:

«أنا النهاردة مرضِتُش أضغط عليكي، بس بكرة لازم أفهم مالِك، وانسِي إنَّك مُكِن تهربي من عزومة العشا تاني!»

ابتسمتْ قليلًا، ثم انتظرتْ بضعَ دقائقَ وأرسلتْ له قائلةً:

«موافقة يا فندم، حَدّ يقدَر يقول للحكومة لا؟!»

ثم تركتْ هاتفَها جانبًا، وأحضرتِ «اللابتوبَ» الخاصَّ بها، وقرَّرتْ أن تخوضَ غِمارَ هذه الحربِ الشنعاء، وأن تغوصَ بداخِلِها؛ لتعرِفَ ما الذي حلَّ بهؤلاء الناس، وما الذي أوصلهم إلى هذا الحد، وفي ذات الوقت، تذكَّرَتْ كلمةَ أبيها، عندما قال لها ذات يوم:

«يا سلمى، السياسة دي بيسَمُّوها (The Dirty Game)؛ يعني اللعبة الوسخة، إوعِي مرَّة تفكِّري تلعبيها؛ علشان مهما كُنتي نضيفة، هتوسَّخِك.."

قامتْ لتصنع لنفسِها كوبًا من الشوكولاتة الساخنة، لم تجِدْ مُكوِّناتِها في غُرفةِ الفندق، فاتصلتْ بخدمةِ الغُرَفِ طلبتْ منهم كوبًا من البُنِّ الساخن والكاكاو.. كانتْ ماهرةً للغايةِ في صناعة "الهوت شوكليت".

بعد أن أصبحَ الكوبُ المليءُ بالشوكولاتةِ ملكَ يَدَيها، احتضنتْه بكلتا اليدين لتحصُلَ على بعض الدِفْءِ، جلستْ على السرير ووضعتِ "اللابتوبَ" أمامَها، وبدأتْ تلك الرحلةَ القصيرةَ للغايةِ،

Scanned by CamScanner

التي لن تمتدَّ لأكثرَ من ساعةٍ على أقصى تقدير.

فتحتُ موقعَ "جوجل" وكتبتُ:

"قصصٌ من داخلِ السجونِ السوريَّةِ"

لتظهرَ لها عِدَّةُ عناوينَ، مثل:

«عشرةُ جنودٍ اغتصبوني وابني ينظر»... قصصٌ من الرعبِ السوري»

«مُعتقلةٌ سابقةٌ تروي قصصَ مُعتقلاتٍ أُعدِمْنَ في سُجون الأسد»

«مُعتقلون يروون عن الجحيمِ بالسُجونِ السوريَّة»

«جحيمُ السجونِ السوريَّةِ في (عربة الذل)»

«سبعُ سوريَّاتٍ يَروينَ قصصَ اغتصابهنَّ في سُجون الأسد»

وغيرُها الكثيرُ من هذه العناوين المُرعبة، والتي تُدخِلُ الأذى للنفس. قرَّرتُ أن تفتحَ المواقعَ تباعًا، وتبدأ القراءةَ في هذه البُقعةِ السوداء؛ لتقرأ قصصًا مُشابِهةً لما سمعتُه من مازنَ وروان.

شعرتُ بالإهانةِ تخترقُ كُلَّ جزءٍ من جسدِها، قامتْ لتتحرَّكَ قليلًا، اتجهتْ ناحية البلكونة، ووقفتْ قليلًا أمامَ البحر، كان البحرُ أمامَ عُرفتِها مُباشرةً. دخلتْ وفتحتْ حقيبتَها، أخرجتْ عُلبةَ السجائرِ وأشعلتْ سيجارةً، وكانتْ تنفخُ دُخَانَها وكأنها تنفخُ الضيقَ والقلقَ والتوتُّرَ القابعَ بداخِلِها.

Scanned by CamScanner

وقفتُ تُفكّرُ في كُلِّ ما يحدث. لماذا يحدث ذلك؟ لماذا يقتل الناسُ بعضُهم بعضًا؟ لماذا يغتصبُ أحدهم امرأةً لإذلالها؟! أليس الجنسُ فِعلًا إنسانيًّا؟ رقيقًا كان أو عنيفًا. ولكنه فِعلُ حُبٍّ، فِعلُ عشقٍ. الجنسُ هو تقريبًا ما يُحدِّدُ طريقة سَيرِ العَلاقةِ بين الشخصين. فلماذا أصبح فِعلَ إذلالٍ؟! وأصبح أداةَ تعذيبٍ لدى الكثيرين من المرضى النفسيين؟!

تذكرتُ أن أولَ كلامٍ سمعتُه عن الجنس كان من والدتِها. كان يومَ أن بلغتُ. جلستُ معَها أُمُّها وتحدَّثتُ عن كُلِّ شيء. تحدَّثتُ معها؛ حسبما قالت: "علشان مش عايزاكي تسمعي كلام غلط من أصحابك. وتفهمي حاجة غلط". لطالما دَعَتْ لوالدتِها بسبب هذا الأمر تحديدًا. لولا أنها تحدَّثتُ معَها في كُلِّ تلك الأمور لأفسدتْ صديقاتُها كُلَّ مفاهيمِها عن تلك الأمور.

كان حلمُها هو أن تُمارسَه مع شخصٍ تعشقُه. تعشقُ روحَه قبلَ أن تعشقَ جسدَه. لطالما قرأتْ وتصفَّحتْ مواقعَ "الإنترنت"، وبعضَ الكتب. ولكن أيًّا منها لم يكنْ ليُشبِعَ رغباتِها الجامحةَ. لم تستطعْ يومًا أن تبوحَ لأيٍّ مِمَّنْ حولَها بتلك الرغبات؛ فالتعريفُ الرسميُّ والمحفوظُ في المجتمعِ المُحيطِ بها أنها "عاهرةٌ" إن تفوَّهَتْ بكلمةٍ عن هذه الأمور.

حلمتْ بأن تجدَ الشخصَ الذي يُمكِنُها أن تتعرَّى أمامَه دونَ خجل. أن يلمسَ جسدَها بأصابِعه ويَدِه. فتسعدَ بتلك اللمسات. أن تستشعرَ أنفاسَه بالقُربِ من أُذنِها. أن تصلَ للحظةِ النشوةِ

Scanned by CamScanner

بين أحضانِه. لحظة "الأورجازم" التي تحلمُ بها كُلُّ امرأة. وربما لهذا السبب كانتْ ترفضُ الكثيرَ والكثيرَ من الزِّيجات؛ لأنها لم تشعرْ أن أحدَهم سيُسعِدُها مثلما تريد.

لم تنتبه إلى أن السيجارةَ قاربتْ على الانتهاءِ حتى أحرقتْ بَدَها. أطفأتْها وأغلقتِ الغُرفةَ. وعادتْ إلى "اللابتوبِّ" مرَّةً أُخرى، لتغوصَ في هذه البِرْكَةِ العَفِنَةِ التي تُريدُ أن تعرفَ عنها المزيد.

فتحتْ مَوقِعًا آخرَ لتُكمِلَ القراءة. أكملتْ سلمى القراءةَ دونَ توقُّفٍ، وكأن هناك ما يدفعُها لذلك.

أنهتْ سلمى رحلةَ البحث في هذا السياق، ثم قرَّرتْ أن تخوضَ غِمَارَ مِنْطَقَةٍ أخطر، أخطر من الناحية النفسية عليها هي شخصيًّا: اغتصاب النساء. قرَّرتْ أن تقرأ المزيد. ليس عن التعذيب بشكل عام، بل عن اغتصاب النساء بشكل خاص، وتعذيب النساء وإذلالهن.

مسحتْ ما كتبتْه على جوجل منذ قليل، وكتبتْ:

«اغتصابُ النساءِ في السجونِ السوريَّة»

وجدَتِ الكثيرَ من مقاطع الفيديو على مَوقِع «اليوتيوب»، كُلُّها عناوينُ مُشوِّقةٌ، من نوعية: «شاهدِ اغتصابَ السوريَّاتِ بالتفصيل»، وما إلى ذلك. كانتْ تُفكِّرُ في أن تفتحَ أحدَهم،

ولكنها لم تكنْ تعرفُ مدى استعدادِها لمُشاهَدةِ هذه الأشياء أو حتى مُشاهَدةِ تِلكُمُ النساء يروين الحكاياتِ بأنفُسِهنَّ كانت تُحاوِلُ أن تمنعَ الدموعَ من أن تتساقطَ على «اللابتوب»..

فكَّرتُ في أن الرابطَ بينَ كُلِّ هؤلاء هو، إمَّا العملُ من أجل مُساعدةِ السوريِّين المُتضرِّرين، أو أشخاصٌ لم يرغبوا في التواصُلِ مع النظام، أو أشخاصٌ تواصلوا مع الجيشِ الحُرِّ بطريقةٍ أو بأُخرى أو لهم أقاربُ هناك. أيًّا كان السبب، لم يكنْ هذا بالنسبةِ لها سوى انعدامٍ للإنسانيَّة، وانعدامٍ لكُلِّ ما ذكره اللهُ في كُتُبِه السماويَّة عن الرحمة والتراحُم والعَفو. لعنها اللهُ السياسةَ ولعن مَنِ اخترعها، ومَنْ أرادَها، فهي سببُ كُلِّ هذه الشرور وسببُ كُلِّ هذه البَلاوَى التي يعيشُ فيها هذا الكوكب.

ماذا سيحدثُ لو أتى نيزكٌ فضائيٌّ تائهٌ، لا يعرفُ له مُستقرًّا فيضرب الأرض؟ سيرتاح الجميع.. لن يكون هناك "جميعٌ" أصلًا كي يرتاحوا، ولكن، على الأقل، لن يرى اللهُ مَنْ جعلهم خُلفاءَه في الأرض يرتكبون كُلَّ هذه الفظائعِ والشرور، ويُسبِّبون الأذى للجميع، ولغيرِهم.

قرَّرتُ أن تنتقلَ إلى مُستوًى آخر، قرَّرتُ أن تُغلِقَ هذه الصفحات التي لا تبعث سوى على الكآبة والبكاء والضرر النفسي، أرادتْ أن تعرفَ أكثرَ بشأن مَنْ يُسافِرون ويُهاجِرون من سوريا إلى خارجها.

لم تُرِدْ سلمى أن تقرأ المزيد، كان الأمرُ فوقَ قوَّةِ احتمالِها؛ هي أو أيِّ شخصٍ رزقه اللهُ بعضًا من الإنسانيَّة. قادتْها رغبتُها في

Scanned by CamScanner

معرفة المزيد، ولكن ليس المزيد من هذه القصص المأساويَّة، بل معرفة المزيد عن الإحصائيَّات، ولكنها فضَّلتْ أن تُؤجِّلَ الموضوعَ إلى يومٍ آخر؛ فقد اكتفتْ، اكتفتْ ليومٍ واحدٍ من كُلِّ هذه القصص، فما بالُها بمَنْ يعيشونها يوميًّا!

في هذه اللحظة رنَّ هاتفُها ليقطعَ حبلَ أفكارِها، حمدًا لله، كان المتَّصِلُ هو شخصٌ واحدٌ لا غيرَه، أُمُّها:

- إزيِّك يا ماما؟ وحشتيني. عاملة إيه؟

- الحمد لله. إنتي عاملة إيه يا حبيبتي؟

- الحمد لله تمام.

- مال صوتِك؟

- لأ عادي، تعب شغل بس، ما تشغليش بالِك، أخبارِك إنتي إيه؟

- كُلُّه تمام الحمد لله، بقولِّك إيه، في ناس عايزين ييجوا يزورونا لمَّا ترجعي..

- يووووووووه، تاني يا ماما؟!

- تاني وتالت ورابع، أنا زهِقْتُ بقى.. إيه؟! ناوية تتجوزي إمتى؟! لمَّا يبقى عندِك ٤٠ سنة؟!

- يا ماما عَنِّي ما اتجوَّزتُ خالص، عَنِّي ما اتجوَّزتُ، هتستفيدي إيه لمَّا أتجوَّز يعني؟ إنتي اللي هتعيشي معاه مثلًا؟

Scanned by CamScanner

- إنتي يابنتي إيه؟! جِبِلَّة؟! ما بتحسّيش؟! ما نفسكيش يبقى عندِك عيِّل ولّا عيلة؟! ما نفسكيش تسمعي كلمة ماما؟! ما نفسكيش يبقى ليكي راجل مسنودة عليه وشايل همك؟!

- وأنا ليه أتجوِّز واحد أقرفُه ويقرفِني، وبعدين أنا ليه أتسند على راجل؟ هو أنا مش ساندة نفسي يعني كفاية؟! أنا قادرة أشيل نَفسي يا ماما. مش عايزة أتجوِّز بطريقتِك دي أرجوكي، كفاية.

رَمَتِ الهاتفَ من يَدِها. كان صوتُ أُمِّها يأتيها في الخلفيَّة من بعيد، وهي تُنادِي عليها، وتصرخُ بكلماتٍ لم تستمعْ إليها جيدًا. كانتْ تبكي، تبكي بحُرْقةٍ بالغة.

وبينما هي في حالتِها المُزرِيةِ تلك، رنَّ هاتفُها مرَّةً أُخرى. كان هيثمَ. شعرتْ أنها تحتاجُه في تلك اللحظة. تمنَّتْ لو أنه هنا الآن، تحكي له، وتفضفض له بالكثير من الكلام. رفعتْ سمَّاعةَ الهاتفِ، فجاءها صوتُه، وحولَه ضوضاء وأصواتُ سيارات:

- أيوة يا سلمى، إزيِّك؟

- هيثم عامل إيه؟ يارتني كنت جِبْت في سيرة ربع جنيه مخروم.

- يعني أنا أسوى عندِك ربع جنيه مخروم؟ متشكِّر يا ستّي، بَسّ جِبتي سيرتي مع مين؟

- لا مش مع حد. مع نفسي كده..

Scanned by CamScanner

- إنتي مش جعانة؟

- تصدّق لسّة كنت هطلب أكُل من الفندق! طب أنا في اللوبي تحت. إلبسي وانزلي. هعشّيكي برّة. وعلى حسابي المرّة دي.

- حالًا. إدّيني عشر دقايق.

قفَزَتِ السعادةُ إلى قلبِها فجأةً. تمنَّتْ أن تراه وتُجالِسَه. فأتاها من حيث لا تدري ولا تحتسب. أتاها ليُنقِذَها من براثنِ أفكارِها ومُكالَمَةِ أُمِّها. وكُلِّ هذا العناء.

ارتدتْ ملابسَها سريعًا. ونزلتْ. لتجدَه جالسًا على كُرسيٍّ يلعبُ في هاتفِه المحمول:

- مساء الخير يا فندم!

- أهلًا يا فندم. إيه الحلاوة دي سعادتِك؟!

- البيه بيعاكس بقى!

- لو ما عندكيش مانع يعني..

- ماشي يا سيدي. نعدّيهالَك المرّة دي..

خرجا من الفندق. كان البحرُ مُواجِهًا تمامًا لهما. أرادتْ سلمى أن تمشيَ على الكورنيش قليلًا. فسارا في اتجاه المطعم الذي قرَّرَ أن يأخذَها إليه. كان الجو باردًا. فأعطاها الـ "جاكيت" الذي كان يرتديه. رفضتْ بشِدَّة. ولكنه أصرَّ

Scanned by CamScanner

باعتبار أن هذا تصرُّف "الجينتلمانِ" الحَقّ.

- كنتي قاعدة بتعملي إيه؟

- بعيَّط.

- باين على عينيكي، بس محبّتش أسأل بشكل مباشر ليه؟ لو من حقي أسأل يعني..

- كنت بكلّم أُمّي، وكلّمتْنِي في موضوع كده فانخنقت وكنت قبلها بقرأ حاجات مأساويّة.

- طيّب خلّينا في حاجة حاجة. أُمّك كلّمِتك في إيه؟

- جايبالي عريس.

- بَسْ؟

- بَسْ.

- طَبْ وإيه اللي ضايقِك؟

- لأ يعني انفعلتُ في الكلام وصرخت، وهي صرخت، وكده يعني، إنتَ عارف بقى الستّات.

- وإنتي طبعًا رافضة؟

- أكيد.

- طَبْ الحمد لله..

- نعم!

Scanned by CamScanner

- لا متركّزيش.. وإيه بقي الحاجات المأساويَّة اللي كنتي بتقرأيها؟

- الجماعة اللي عندك

- مالهم؟

- لأ أقصد عنهم يعني، عن السوريين واللي بيحصل لهم، قرأتْ شويّة قصص، أنا عيَّطْت وأنا بقرأها، ما اعرفش فعلًا ليه كُلْ ده بيحصل!

- دي ما فيهاش ليه يا سلمى؛ هوَّ سِلْوْ بلدنا كده، قصدي سِلْوْ دنيِتنا كده؛ فيها الشر والخير، ولازم الاتنين يتخانقوا عشان واحد بنتصر في الآخِر هيَّ الدنيا من يوم ما آدم وحوَّا نزلوا عليها وهيَّ ماشية كده..

- طَبْ ليه ناس بتشيل ذنوب معملِتْهَاش، وناس بتدفع فاتورة حاجات ما ارتكبِتْهَاش؟

- صعب أوي تسألي السؤال ده؛ لأن تقريبًا ملهوش إجابة، لأن لو هتسألي السؤال ده، فهتضطري تسأليه وتطبقيه على حاجات كتيرة أوي، ناس كتير بتدفع فواتير مش بتاعتها، بُصّي، الأسئلة الوجوديَّة دي صعبة أوي، عارفة عاملة زيّ سؤال "هوَّ ربِّنا فين؟" مثلًا يعني، الأسئلة اللي إجابتها عُمْرَها ما هتقنِعك، وفي نفس الوقت، هيَّ ملهاش غير الإجابة دي، أو ملهاش أصلًا، تسمعي عن مضايا؟

Scanned by CamScanner

- مضايا إيه دي؟ لأ..

- دي قرية في سوريا. لسَّة كنت بشوف الأخبار قبل ما أجيلك كانوا بيتكلِّموا عنها. القرية دي متحاصرة. حسب التقارير الإخبارية يعني، القرية دي مُحاصِرها جيش الأسد، وحزب الله...

- لأ لحظة بَسّ. هو مش حزب الله ده المفروض إنه كويِّس يعني؟ يعني كانوا بيعملوا عمليَّات زمان ضد إسرائيل، وخاضوا حروب كتير على الحدود اللبنانية الفلسطينية ضد إسرائيل؟ صح ولَّا أنا فاهمة غلط؟

- بُصّي، حسب ما أنا فاهم يعني، حزب الله أساسًا كان من مُمَوِّليه الأساسيِّين الحكومة السوريَّة. فهوَّ تابع ليها فأيّ حاجة وهوَّ معاها عامَّةً. المهم. القرية دي مُحاصَرة. وأهلها كُلُّهم ممنوع عنهم الأكل والدوا. في أكتر من ١٥ واحد مات لحَدّ اللحظة دي، ومحدِّش عارف يدخَّلُّهم أكل ولا أيّ حاجة. وجابوا شويَّة صور لناس شَبَه الهياكل العظميَّة بالظبط.

- يعني هُمَّ ناقصين؟ بيموتوا من القصف والقرف ده. وكمان مفيش أكل!

- بُصّي، كُلَّها حسابات سياسيَّة. يمكن أنا مش فاهمها بالظبط يعني. بس عرفت كمان إن الناس في القرية دي بقوا نفسيًّا مُستعدِّين يمسكوا الكلاب والقطط يقتلوها وياكلوا لحمها. إنتي مُتخيِّلة: قرية متحاصرة لحوالي ١٩٥ يوم حتى الآن

Scanned by CamScanner

والمجتمع الدولي قاعد بيتفرّج. ومش هيتدخل غير في اللحظة اللي تناسبه هوَّ. وحسب مصلحته هو. حتى إن في حيطة من حوائط المدينة دي مكتوب عليها "الجوع. أو الركوع". وكأن ده الشعار بتاع الحصار. عايز تاكُل؟ إركعْ لينا. مش عايز تركع؟ يبقى موت من الجوع. مأساة يا سلمى!

- مأساة فعلًا. طيّب ممكن نغيّر الموضوع؟ عشان والله هَرْمِي نَفْسِي في البحر ده حالًا من كَتْر الكآبة!

- لا يا ستّي وعلى إيه؟! يلّا بينا ناكُل..

عادتْ سلمى إلى الفندق بعدَ ليلةٍ لطيفةٍ وجميلة. تبادلا فيها الأحاديثَ والنِّكاتِ. والضَحِكَ والبكاءَ.. كان يومًا أحبَّتْه. وأرادتْ أن تتذكرَه دومًا..

وفي نفس الوقت. بينما هيثمُ يقودُ سيارتَه عائدًا إلى منزله. رنَّ هاتفُه. فتحه ليجد رسالةً:

«وحشتِني جدًّا يا هيثم. إرجع علشان مفيش حاجة هنا ليها طعم من غيرَك».

قبل أن تنام. أخرجتْ سلمى مُفكِّرَتَها. وكتبتْ فيها:

« قلوبُ المُحبِّين مثل قلوبِ المُجاهدِين: تكون على قلب رجلٍ واحدٍ في الضَرَّاءِ قبلَ السَرَّاء.. نعم: قلبُه وقلبُها واحد. وهما شخصٌ واحد. ولا يُفرِّقُ بينهما سوى أنهما بجسدَين.. فقط.

الحب هو أنه ما بينَ كوكبِنا والمجرّاتِ الأُخرى ملايينُ السنين الضوئيّة.

Scanned by CamScanner

ما بينَ الصفرِ والواحدِ أعدادٌ لا حصرَ لها من الأرقام. ما بينَ الواحدِ والمليونِ أعدادٌ أكبر. ما بينَ سيدِنا آدمَ وآخرِ إنسانٍ على الأرضِ ملايينُ السنين. ما بينَ أولِ شاعرٍ كتب بيتَ شِعْرٍ وآخرِ شاعرٍ سيُكتَبُ ملايينُ الأبيات. ما بينَ أول دقّةِ قلبٍ على الكوكب وآخر دقّاتِ قلبٍ دقّاتٌ كثيرةٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى. ما بينَ أولِ كلمةِ حُبٍّ وآخر كلمةِ حُبٍّ تُقال، كلامٌ أكثر، ودموعٌ سالتْ على وجوه العاشقين، ملايينُ الأحلامِ ضاعت، وملايينُ الأحلامِ تحقّقتْ وستتحقّقُ، هناك حُبٌّ يمتدُّ بينَ كُلِّ تلك البدايات والنهايات، ولا ينتهي إلّا بموتِ أصحابِه؛ ليُدفَنَ معَهم...

قرّرتُ أن تنهيَ هذه المهزلةَ العاطفيّةَ، لتستيقظَ اليومَ التالي على قصصٍ أكثرَ مأساويّةً ودراما ممّا قرأتُ، وممّا قد تتخيّل..

***

كان الصباحُ التالي أجملَ كثيرًا؛ فقد نامت سعيدة. و«سعيدةً» هنا تعنيها؛ بكُلِّ ما تحملُه الكلمةُ من معانٍ وإيحاءات. لم تَنَمْ بهذا القَدْرِ من السعادة منذ مُدّةٍ طويلة.

استيقظتْ على مُكالمةٍ من هيثم؛ يُخبرها أنه سينتظرها في المَوعِد كما اعتادا. قامتْ بالأمور الروتينيّة، تناولتِ الإفطارَ والقهوةَ في مَطعمِ الفندق، مع سيجارةٍ سريعةٍ حتى لا تتأخّرَ على هيثم، خرجتْ لتجدَه بانتظارِها في سيارته.

- صباح الخير!

- صباح الفل، إيه الأخبار؟

Scanned by CamScanner

- كُلّه جميل الحمد لله. نمت كويّس.

- تمام. استعدّي علشان عندنا يوم طويل بقى..

- استعنّا على الشقا بالله.

وصلا إلى القِسْم. صعدا حتى وصلا للغُرفةِ التي يتمُّ التحقيقُ فيها. وجدا المُحَقِّقين هناك. جلس الجميع. واتخذوا جميعًا وضعَ الاستعداد. نادى هيثمُ العسكريَّ، وأمره بإحضارِ بقيَّةِ الأشخاص نباعًا.

استوقفتْ سلمى العسكريَّ؛ وطلبتْ من هيثمَ أن يسمحَ لها بأن تذهبَ معَ العسكريِّ في البداية، وأن تُجالِسَ المسجوناتِ قليلًا. ربما كان هذا ضِدَّ النظامِ الساري، ولكنه كان طلبًا استثنائيًّا. أخبرها أن الأمرَ صعبٌ، ولكنه سيُحاوِلُ تدبيرَه.

استأذن المُحَقِّقين في أن يُؤخِّروا البَدْءَ ساعة. لم يعترضوا؛ خاصَّةً أنهم أرادوا تناوُلَ القهوةِ قبلَ أن يبدأوا. ذهب هيثمُ لمدة ربع ساعة، ثم عادَ مُخبِرًا سلمى أنه يُمكِنُها الذهاب. أمر العسكريُّ أن يصطحِبَها لعنبر النساء السوريّات.

نزلتْ سلمى تتبع هذا العسكريَّ، الذي سلَّمَها بدورِه لأمينِ شُرطةٍ يقف على باب مَمَرِّ العنابر:

- هيثم بيه أمر تطلع عنبر النسوان بتوع سوريا.

نظر لها الأمينُ نظرةً مُريبةً:

Scanned by CamScanner

- وإنتي طالعالهم ليه إن شاء الله؟

- والله ممكن ننادي هيثم بيه ونسأله، لو إنتَ حابب تنزل من فوق يعني.

- إيه يا أستاذة، بتهدِّدينا يعني ولَّا إيه؟!

- لا بهدِّدَك ولا حاجة، أنا بقولَّك لو عايز تعرف إندَه واسالها

اصطحبها بتأفُّفٍ، وهو يرغب -بداخِله- أن يقذفَ بهذه المُشاكِسةِ بداخل أحد تلك العنابر. دخلتُ في ممرٍّ ضيِّقٍ به نورٌ خفيفٌ للغاية، مرَّتْ في البداية على عنبر الرجال، حسبما كُتِبَ على اللوحة المعلقة على باب العنبر.

بينما كانت تمرُّ سمعتُ أحدَهم يتحدَّثُ من داخل العنبر:

- إيه يا أمين أحماااااااااد، معاك ضيوف حلوين النهاردة..

- إتلمّ يا صادق، وخُشّ على فرشِتَك بَدَل ما أِلمّها

- لأ وعلى إيه.. الطيِّب أحسن.

شعرتُ بتوجُّس، غريبٌ هذا الجوُّ عليها، غريبٌ تمامًا، لأول مرَّة ترى عنابرَ ومساجينَ، وكُلَّ هذه الأشياء التي اعتادتْ أن تراها فقط في أفلامِ خالد يُوسُف.

وصلا حتى بداية سُلَّمٍ طويل، ثم سلَّمها لأمينٍ آخرَ يبدو بَشُوشًا وظريفًا عن هذا المُتجهِّم، أخبره بالأمر، فقال لها:

"اتفضَّلي يا آنسة معايا، محسوبِك محمود، شغَّال هنا

Scanned by CamScanner

بقالي ١٥ سنة. يعني حافظ القِسْم ده أكتر ما حافظ بيتنا".

أرادتْ أن تُلطِّفَ الجوَّ قليلًا. فردَّتْ قائلةً:

"أهلا وسهلا يا محمود. القِسْم منوَّر بأصحابُه بقى".

ثم أخرجتْ خمسين جنيهًا. ووضعتُها في جيبِه. فقال لها مُنهلِّلًا:

"والله إنتي أستاذة سِمْحة ووِشِّك بَشُوش وزَيّ الفُلّ. تحبّي أجيلِك شاي أو حاجة؟"

فردَّتْ قائلةً:

"لأ. بَسّ وصّلِني فوق وخلاص. وخلّيك قُريّب يعني".

صعدا للدور الثاني فوجدتْ أربعة عنابر: واحدٌ عن يسارِها، وهو مفتوح.. فَهِمَتْ حسبما قال لها الأمينُ أن هذا عنبرُ الرجال السوريّين. وهناك ثلاث زنزانات عن يسارِها: اثنتان منهما مفتوحتان، والأُخرى مُغلَقة. كان الاثنان عنابرَ للسوريّين أيضًا: واحدٌ للرجالِ، وآخَرُ للنساء.

فبادَرتْ بسؤالِه:

- هو ليه يا عم محمود الرجّالة واخدين زنزانتين، والستّات زنزانة واحدة؟!

فردَّ ضاحِكًا:

- جرى إيه يا أستاذة: هنعارض كلام ربّنا؟ مش ربّنا بيقول:

«للذكرِ مِثلُ حظِّ الأُنثيَين»؟

ضحِكَ كلٌّ منهما على هذه الطُّرفَة، ثم نظرتُ للزنزانةِ المُغلَقةِ، لتجدَ امرأةً مُتجهِّمةً تنظر لها، ولم تلبثْ أن سمعتُ صُراخًا في هذه الزنزانة، فاتَّجه ناحيتَها الأمينُ محمود، ودقَّ البابَ بيَدِه بقوَّةٍ، قائلا:

- جرى إيه يا مَرَة مِنّك ليها؟! ما تتلُّموا، ولَّا أدخُل أطوَّق فيكم الضرب؟! هيَّ علامة الحزام بتاعي راحتْ من على جِتَتْكُم ولَّا إيه؟!

فردَّتْ إحداهُنَّ بصوتٍ جَهُوريٍّ:

- ما هم أصلهم نِسْوَان وِسْخة؛ عايزين ياخدوا بأقدم جزمة، والله لو ما اتلمُّوا عنِّي لأعمل لكم جناية في القِسْم.

فقال الأمينُ محمود بنفسِ القوَّة:

- إتلمِّي يا صفيَّة بَدَل ما أدخل أِلمّك، إتلمِّي بَدَل ما تشوفي الوِشّ الوِحِش بتاعي!

كان الأمرُ كُلُّه غريبًا بالنسبة لسلمى، فحاولتُ أن تستفسِرَ مِنْه، قائلةً:

- معلِّش بس، أنا آسفة، هُمَّ مالهُم؟ في إيه؟

- لأ يا أستاذة متاخديش في بالك؛ دي شويّة نَسْوَان هيجانة، عايزين راجل يلِمُّهم مش أكتر، اتفضَّلي يا أستاذة، عنبر النسوان

Scanned by CamScanner

أمو، انفضّلي، ولو احتاجتي لأي حاجة، اندهيلي.

كان ردُّه صادمًا، ومُحرِجًا، لم تَعتَدْ سلمى سماعَ مِثلَ هذه الألفاظ، ولكنْ، لم يكنْ لديها خيارُ الاعتراضِ في الوقت الراهن، فضّلَتْ أن تظلَّ صامتةً، وأن تتجنَّبَ أيَّ صدامٍ مَعَه.

دخلتْ إلى العنبر بهدوء:

"سلامُ عليكم"

جروب بيت الكتب

فردّتْ إحداهُنَّ:

"وعليكم السلام، اتفضَّلي"

كانتْ تجلسُ أمامَ "وبور" جاز، تصنعُ الشايَ، فأكملتِ المرأةُ قائلةً:

"كَم معلقة سِكّر؟"

فقالت:

"لا شُكرًا، ربّنا يخلّيكي"

فقالتِ المرأةُ:

"والله ما بيصير: إحنا السوريين مِتِل المصريين، أهلًا فيكي"

لم تشعرْ بغُربَةٍ في هذا المكان، على الرغم من رائحته القذرة، والجوِّ المُريبِ بشكلٍ عام، إلّا أنها لم تشعرْ بغُربةٍ وَسَطَهُنَّ، ربما بسبب تلك المُقابَلةِ الدافئةِ من هذه المرأةِ التي لا تعرفها.

Scanned by CamScanner

اقتربتُ منها طفلةٌ صغيرةٌ، لم تنتبه لها إلَّا بعدَ أن جَذَبَتِ الطفلةُ طرفَ بِنطالِها. نظرتْ فوجدتُها تبتسمُ ابتسامةً مُريحةً حملتُها وداعبتُها قليلا.

كان الجميعُ ينظر إليها، ربما أرادوا أن يعرفوا مَنْ هي، وماذا تفعل، فقالتْ بصوتٍ عالٍ:

- مساء الخير، أنا سلمى؛ المُترجمة اللي جايَّة مع المحققين، عايزة بَسّ أقعد وأسمع منكم شويَّة لو مش هتمانعوا. طبعًا في التحقيقات سمعت كلام كتير، بس كنت حابَّة أسمع منكم شخصيًّا، بعيد عن التحقيقات والكلام ده.

رحَّبَ الجميعُ بها، استقبلنْها استقبالًا رائعًا وكأنها في بيتِهِنَّ. جلستْ وَسَطَهُنَّ، وطلبتْ منهُنَّ أن يحكينَ لها ماذا حلَّ بِهِنَّ قبلَ المجيء.

بادرتْ إحداهُنَّ بالحديثِ قائلةً:

- أنا ما أتعذَّبتْ ولا حَدَا ضربني ولا أيْ شِي، كِلّ الموضوع إني كنت بحب، آه والله مِتِل ما عَمْ قِلْكُن هِيْك، كنت بحب واحد جارنا، ومن فترة هاجر علي مَصِر؛ لأنه كان راح يروح على الجيش، وطبعًا هوَّ ما كان يرضى يروح بها الأوضاع، بكِلّ بساطة راح وسافر، وراح على مصر، وعاش هُوْن واستقر، وأسَّسْ مشروع وعايش منيح. وكِنَّا بنحكي علي طول من فترة للتانية، واقترح عليّ أجيله لمَصِر ونتجوَّز هُوْن، وإطلع من سوريا ومشاكلها.

Scanned by CamScanner

أهلي بالبداية رفضوا بحجة العادات والتقاليد، وكيف سافر لحالي وروح لرجّال غريب ما عَمْ نعرفُه. بعد ما حكينا كتير، أقنعت أبي، ووعدتُه أول شِي هعمله أول ما أوصل لهُون: إن راح نتجوَّز وأبعتله إثبات الجواز: مِنْشَان يتأكَّد إني راح ضَلّ قاعدة مع جوزي، مُو مع رجّال غريب. ومع هيك، أبي رفض كمان، لحد ما صارلنا مِتِل ما صار للناس: مات أبي وأُمّي، وبقيت وحيدة. وما كان عندي حلول غير السفر، ولهيك هربِتْ مِنْشَان آجي لعدنان، لغاية ما صِرِتْ عليه مِنْشان يطلّعْنِي.

- يعني على كده لو المُحقّقين سألوكي عايزة تروحي ألمانيا ولّا فرنسا، مش هترضِي؟

- طبعًا ما راح إرضَى: مكان ما يكون عدنان بْكُون.

ابتسمتْ سلمى، وإن كانتْ في قرارةِ نفسِها لا تعرفُ مدى إمكانيَّةِ بقاءها في مصرَ من عدمِه أساسًا، ولكنها لم تُرِد أن تُحبِطَها، أو أن تُحطِّمَ أحلامَها الورديَّةَ الجميلة، ثم التفتتْ حولَها، لتجدَ امرأةً تتعدَّى الخامسةَ والأربعين، ولم يكنْ يبدو عليها ضعفٌ أو قِلَّةُ حيلةٍ، فاستغربتْ وجودَها في هذا المكان، فتُلاحِظُ المرأةُ نظراتِ سلمى، لها فبادرتُها قائلةً:

- لا تِطَلّعِي فيَّ هِيك، أنا ما في ورايا شِي كبير، ولا شِي أبدًا؛ كِلّ القصة إني بنت غنية، معي مصاري، قرّرتْ أعيش الباقي من عمري في مكان منيح ونضيف، وأبْعِد عن كِلّ شِي بِيْصِير،

أنا ما لي في السياسة، ولا بحبها، ولا بفهم فيها. جمعت كِلّ مصاريّ، وحوَّلتَها على ألمانيا؛ لأولادي هونيك. والمفروض إني كنت راكبة السفينة اللي جابتنا هون؛ على أساس إني رايحة إيطاليا، ومن هونيك إطلع ألمانيا لأولادي وأحفادي. وبدل ما أروح على إيطاليا، جيت علي (جزيرة نيلسون). شِفتِي؟ حكايتي بسيطة، وما فيها أيّ تعقيدات.

- أنا آسفة في السؤال. أنا بَسّ مستغربة طريقتِك بعني، كأنِّك قاعدة في فندق مش في سجن.

- وأنا ليش أضايق نفسي وما أصير منيحة. هون بنتعامل منيح، وخروجنا من هون مسألة وقت مو أكتر. فليش بضايق نفسي؟! إنتوا بنات مصر بتحبوا النكد مِتِل عنيكُن. أما إحنا السوريّات بنحب نضحك ونفرح.

أعجبتُها كثيرًا هذه المرأة. تمنَّتْ لو لديها نصفُ التفاؤلِ الذي تملكُه. لاختلفَ حالُها كثيرًا. ولاختلفتْ حياتُها. لربما حتى أمكنها أن تُغيِّرَ قدَرَها.

مرَّرَتْ سلمى عينيها علي النسوة الجالسات. لتقع على امرأة ثلاثينيَّة. تبدو عليها بعضُ القوة. نظرتْ إليها سلمى، فقالت:

- وإنتي بقى، إيه حكايتِك يا سِتّي؟ حاسّة وَرَاكِي قصة كبيرة!

Scanned by CamScanner

(*) هيّ كبيرة فعلاً. أنا (هنادي): مُعتقَلَة سابقة. اعتقلوني في أواخر عام (٢٠١٢م). اختفيت فجأة من دِمَشْق من الحارة اللي كِنت عايشة فيها. أخدوني لواحد من الحواجز هونيك. أهلي فكروا إني اختفيت أو مِتِتْ. بس طلعت من تلات شهور.

بعد ما اتحولت للمحاكمة في سجن «عدرا». حقَّقُوا معي أكتر من ١٩ مرَّة. بتُهَم مختلفة. كان أكترها تمويل الإرهاب. والتواصُل مع قنوات مُغرِضة وعميلة. وهونيك بدأتْ شُوف أشد أنواع التعذيب؛ من الضرب والإهانة. إلى الصعق بالكهرباء. والتحرُّش اللفظي..

جروب بيت الكتب

اعتقلوني لمدة ٤٩ يوم في فرع المنطقة ٢٢٧. وبعد ما حقَّقُوا معي. بعدين نقلوني للفرع ٢٩١؛ لأني كِنتْ مطلوبة هونيك كمان. بعدها أخدوني لفرع الأمن العسكري ٢١٥. وهذا قسم معروف بسمعته البشعة في إنه من أشد أماكن الاعتقال باللي بيتعذبوا فيها. ومن هُون بدأتْ الحكاية تتشعَّب أكتر.. دخلتْ على الفرع. وكان في رجَّال عمره فوق الستين سنة. وكانتْ المعتقلات سموه «شرشبيل». لأنه كان شرير في المعاملة. وكان بيشلِّح حجاب البنات. ويهينونْ من خلال التفتيش. وبعدين يتناوب مع الضابط اللي كان قِدَّامه الحكي البذيئ قِدَّامنا.

بعد التفتيش. دخلتْ غِرفة فيها بنات. فيهم لِصُغار. وفيهم اللي عِنْدُونْ ستين سنة. اتعرَّفتْ على كتير مِنْهُن. كِنت كِلْ يوم

(*) القصة من موقع «عربي ٢١»

نقريبًا ببكي كتير بس أول ما دخلتُ كانوا عَمْ حاولوا براضوني ويخففوا عني. فلقيت واحدة مِنْهُن بتقِلّي وهي بتضحك: «فتشّك عَمّو شرشبيل؟»

كان معنا في المعتقل عالمة فيزيا، وبنات مشهورين كتير. وبعد فترة خرجت من المعتقل وقررت الهرب متلي متل غيري.

أنهتْ هنادي القصة، وكان الصمتُ هو سيد المكان. لاحظتُ سلمى أن بعضَهُنَّ بدأنَ في البكاء. كانت طريقةُ سردِها للقصة مُؤثّرةً للغاية. مِمّا أعاد الذكرياتِ البَشِعةَ على الجميع. لم يكنْ لدى سلمى سوى ربعِ ساعةٍ فقط، ربما يُمكِنُها أن تسمعَ قصةً أُخرى. كان نظراتُهُنَّ جميعًا مليئةً بالشجنِ، والحزنِ، والغضبِ. كُنَّ يُرِدْنَ فقط أن يحكين، أن يُخرِجْنَ بعضًا من الغضبِ القابعِ بداخلهن.

إلّا أن سلمى أرادتْ أن تُغيّرَ دفّةَ الحديث: هل لتُخرِجَهم من الكآبة التي يعيشون فيها، وهذه الذكريات السوداء؟ أم لأنها شعرتْ بألفَةٍ وَسَطَ هذا العدد من النسوة، فشعرتْ أنه يُمكِنُها أن تُثرثِرَ قليلًا كما تفعلُ النساءُ في العادة؟ فعلي الرُّغم من ظروفِهِنَّ المُختلفةِ، والصعبةِ، إلّا أنهُنَّ يَضحكْنَ، يتحدَّثْنَ، يجعلْنَ من أيام السجنِ حياةً أُخرى، وربما، تجربةً سترويها إحداهُنَّ لأولادها عندما يكبرون، أو ترويها فتاةٌ لمَنْ سيملِكُ قلبَها، فيحتضنُها ليُذهِبَ عنها الألمَ الذي عاشتْه، أو قصةً ترويها جدَّةٌ لأحفادِها

Scanned by CamScanner

قبلَ النوم، لتُخبِرَهم عن الحب، والأمل، والمعاناة، والتعب، والوطن، وسوريا.

كان وقتُ سلمى قد نَفَذ. فاستأذنتهُنَّ، أخبرتُهُنَّ أنها سعِدَت بمعرفتِهِنَّ للغاية. أعربتُ عن حُزنِها وأسفِها لِما بَدَر لهُنَّ، ولكن، وقبلَ أن ترحل، سألتُها إحداهُنَّ:

- إحنا عنجد هنروح من هون؟

فنظرتُ لها سلمى بثقةٍ قائلةً: هتمشوا، هانت بإذن الله.

عادتْ سلمى إلى غُرفةِ التحقيقِ مرَّةً أُخرى لتسمع قصةً وروايةً جديدة. لم تكنْ تظنُّ أن القصةَ التاليةَ ستكون مُختلفةً، توقَّعَتْ أن تسمعَ المزيدَ مِمّا سمعتْه قبلَ ذلك وقرأتْه على «الإنترنت». ولكن، ما إن دخلتْ غُرفةَ التحقيق، حتى قابلها هيثمُ قائلا:

- سلمى، النهاردة اليوم هيتلغي، وهنكمِّل بكرة بإذن الله..

- إيه ده؟! خير؟

- لأ مفيش، القِسْم بَسّ مقلوب شويَّة: علشان اتقبض على تُجّار مُخدِّرات كُبار، وجُمْ على القِسْم هنا، والموضوع كبير شويَّة فهيبقى في قلق كتير، فهنمشِي ونيجِي نكمِّل بكرة بعون الله.

شعرتْ سلمى بارتياحٍ ليس له مُبرِّر، ربما كانتْ تحتاجُ ليوم راحة، فأسعدها الخبرُ كثيرًا.

Scanned by CamScanner

أوصلها هيثمُ إلي الفندق، واتفقا أن يتقابلا ليلًا ليتناولا العشاءَ معًا.

صعدتْ سلمى إلي غُرفتِها، وألقتْ حقيبتَها، ثم دلفتْ إلى الحمَّام، ووقفتْ أمامَ المرآة، تحرَّرتْ من ملابسِها كُلِّها، وكأنها تُزيحُ هُمومًا جاثمةً فوقَ صدرِها، ألقتْ بكُلِّ ما كان يُغطِّيها، لتقفَ أمامَ المرآةِ عاريةً تمامًا.

ظلَّتْ واقفةً دونَ هدفٍ مُحدَّدٍ، غير بعض الأفكار التي كانتْ تُراوِدُها في ذلك الحين، كان الشعورُ المُسيطِرُ عليها كم هي تافهة، هذا ما قالتْه لنفسِها، وكيف أن مشاكلَها كُلَّها مُجتمعةً لا تُساوِي مُشكلةً واحدةً، أو أزمةً واحدةً مِمَّا سمعتْه من هؤلاء النسوة، كم هُنَّ قويَّاتٌ! وكم هي ضعيفةٌ! هل كانتْ لتُقرِّرَ السفرَ وراءَ حبيبٍ في بلادٍ أُخرى، وتعبُرَ البحارَ وتُعانِيَ الأهوالَ من أجله؟ هل كانتْ لتحتمِلَ يومَ سجنٍ واحدًا، وهي التي إن تعرَّضَتْ لتحرُّشٍ لفظيٍّ لظلَّتْ تبكي بالأيام؟!

تحرَّكتْ ببُطءٍ شديدٍ، ووقفتْ تحتَ المياهِ الدافئةِ، وكأنها تغسِلُها من آثامِها وذنوبِها، شعرت بارتياحٍ شديد، تركَتِ المياهَ تغمُرُ جسدَها، الذي لطالما حسدتْها صديقاتُها عليه.. هذا الجسدُ الجميلُ الفائرُ المُتعطِّشُ للكثير، ولكنها تُدرِكُ جيدًا أن عطشَها هذا سيزدادُ ولن يرتوي أبدًا..

كانتِ الأفكارُ تُحاصِرُ رأسَها، بينما المياهُ تغمرُ جسدَها، يجب أن تبتعدَ عنه، تلك المشاعر الخفيفة التي تحرَّكتْ تجاهَه، يجب أن

Scanned by CamScanner

تنتهي فورًا. ولكن، كيف ستبتعد هذه المرَّة؟ كيف ستهرب؟ كيف سيهرب جسدُها، وقلبُها لا يُمكِنُه الهرب؟! ربما هي لا تعرفه منذ مدَّةٍ طويلة، وربما مدة أقصر بكثير مما ينبغي، ولكنها تلك البدايات اللعينة، تلك الشرارة الأولي التي تلهب كُلَّ شيءٍ بعدَها، وتُشعِلُ نيرانًا يَصعُبُ إخمادُها؛ ما يُطلِقُون عليها «الكيميا». هذه هي تحديدًا.

كم قلبًا حطَّمتُه في طريقِها؟ وكم إنسانًا بنى أحلامَه وآمالَه في مِحرابِها؟ وكم قلبًا أزهَقتْ؟!

كثيرون هم، ولكنهم جميعًا كانوا يعرفون، لم تخدعْ أيًّا منهم، كانتْ تتبعُ مبدأ «الصدق منجاة». ولم تَحِدْ عنه أبدًا.

الأولُ أحبَّها بشدَّةٍ، وأحبَّتْه، وعندما علم بالأمر، قرَّرَ الهَرَبَ والنجاة، ونسي في لمحة بصر كُلَّ كلامِ الحب والعشق الذي طالما ملأ أُذنَيها به.

الثاني والثالث والرابع والخامس.. إلخ، جميعُهم ساروا على خُطى الأول، لم يحيدوا عنها قيدَ أُنملة، والغريبُ أنها لم تكنْ تغضبُ منهم أبدًا، كان الأمرُ مُتوقَّعًا، ولكنهم كانوا يُحطِّمون بداخلها نظريةَ «الحب» الأبديةَ، التي طالما قرأتْ عنها في القصص والروايات، وسمعت عنها في الأفلام وقصص الحب المعروفة.

أما هذا الأخير، هو الذي أخبرتْ هيثمَ عنه، ولكنها كذبتْ، تعترفُ بينَها وبينَ نفسِها أنها كذبتْ ربما للمرة الثانيةِ أو الثالثةِ

Scanned by CamScanner

في حياتِها كُلِّها. ولكنْ، لم يكنْ هناك بُدٌّ من تأليف حكايةٍ ما، فهو أكثر مَنْ أحبَّتْهم، تعلَّقَتْ به حتى ظنَّتْه الرجلَ الأخيرَ على الكوكب، الوحيد الذي رضي بها، ورضي بحالها التي لا تَسُر الوحيد الذي قال لها «أنا معاكي على الحلوة والمرّة»، وهو الذي قال لها أنه يحبها لروحها، لا لأيِّ شيءٍ آخر، هو الذي دافع عنها، أخبر الجميعَ أنه لا يهمُّه سوى ما يكمن بداخلها؛ روحها المرحة، شخصيتها الجميلة، طبيعتها الخلّابة، حتى جمالها المُذهِل، يكفيه أن يستيقظَ كُلَّ يومٍ لينظرَ في وجهِها ويبدأ يومَه. كان كلُّ شيء يسيرُ بشكلٍ أكثرَ من رائع، حتى وجدتْه فجأةً يخضعُ لرغبةِ أُمِّه، ويتركُها قبلَ خِطبتِهما بأسبوعين، ليُحطِّمَ البقيَّةَ الباقيةَ من قلبِها، ليمحيَ ما تبقَّى من ثقتِها في جنس الرجال بأكملِه، ثم تجد بعدها بشهرٍ صورةً على «الفيسبوك» الخاص به، وهو يتأبط فتاةً تعرفها جيدًا، وتنهال عليهما تعليقاتُ الأهلِ ولأصدقاءِ وهم يُهنِّئونه بالخِطْبَةِ السعيدة.

والآن، وبعدَ كُلِّ هذا، وبعدَ أن وصلتُ للخامسة والثلاثين، يأتيها هذا الشخص، وبكُلِّ سهولةٍ، ليلفتَ انتباهَها، ينشرُ رائحتَه في المكانِ كما تفعلُ الحيوانات، يتركُ بريقًا لا يُمكِنُ ألَّا تنجَذِبَ إليه، ودونَ أن يدري، ينسج خيوطَه حولَها ببراعةٍ مُتناهية، لتقعَ فريستَه، وفريسةَ قلبِها الذي هو لعنتُها في الحياة.

اللعنةُ علي هذا المرض الذي يقتلُ أيَّ فرصة لوجودِ حياة

Scanned by CamScanner

طبيعية. تتذكرُ المرة الأولى التي مرضتُ فيها، ثم ذهبَتْ لتُجرِيَ بعضَ الفحوصات. كان كلامُ الطبيبِ لها واضحًا وضوحَ الشمس:

- حضرتك عندِك ضِيْقٌ في الصمَّام الميترالي، أيّ خطر، أيّ زَعَل زيادة خطر، أيّ انفعال زايد، من أيّ نوع، خطر. وأنا آسف على اللي هقوله، بس حتى الجواز والخِلفة هيكونوا خطر على صحّتِك.

***

وصل هيثمُ إلي منزلِه. أخرجَ المِفتاحَ ليدخل، فإذ بالقفلِ غيرُ مُحكَمِ الإقفال. يتذكَّرُ جيدًا أنه أغلقه قبلَ نزولِه، ولكنه ربما نسيَ أن يُغلِقَه.

أغلق البابَ خلفَه، وسارَ في الممرِّ المؤدّي إلي غُرفةِ المعيشةِ.. ليتسمَّرَ مكانَه.

ماذا تفعل هنا، كيف دَخَلَتْ؟!

وقف ناظرًا إلى رَنَا في ذهولٍ تام.

- إنتي دخلتي هنا إزّاي؟!

- ده بَدَل ما تقولّي "وحشتيني"؟!

- معلّش؛ أنا بَسّ مخضوض، مِتّاخِد شويّة، ما توقّعتِش ألاقيكي هنا يعني، وبعدين دخلتي إزّاي؟!

- أوّل ما وصلت، سألتُ البوّاب عليك، فسألني أنا مين،

فلتلُه إني المدام بتاعت هيثم بيه، فطبعًا ضربلي تعظيم سلام، وإدّاني المفتاح الاحتياطي اللي إنتَ سايبُه معاه، وعارف كمان، عملتْ حاجة غريبة عليَّا شويَّة، بَعَتُّه جاب شويّة حاجات، وعملتِلّك أكل من إيدي، إتفضَّل إدخُل غيَّر هدومَك، وخد "شاوَر" ظريف، وبعدين تعالى نتغدَّى سوا.

كان الأمرُ كلُّه غريبًا؛ تصرُّفُها، تهوُّرُها، جنونُها، وجودُها هنا أصلا. أخبرها أنه يُريدُ أن يأخُذَ راحةً من هذه العَلَاقة، فلماذا تُصِرُّ أن تضغطَ في المقابِل؟!

استحمَّ، وبدَّلَ ملابسَه، وخرج ليجِدَها ترتدي بيجامةً منزليَّةً، وكأنهما مُتزوِّجان فعلا. هدأ هيثمُ قليلًا، هَدَأتِ انفعالاتُه.

جلسا على الطاولة، وضعتْ له الطعامَ، وبدأتْ في إطعامِه بيَدِها، كان شعورًا جميلًا، الوضعُ كُلُّه كان مُمتِعًا.

بعد أن انتهيا من تناوُلِ الطعام، كانتْ رَنَا قد جهَّزَتْ كُلَّ شيء، ثمَّ توصيلُ "اللابتوب" بالتلفاز، وبضغطةِ زِرٍّ كان "الفيلمُ" الذي اختارتْه يأخذُهما إلى عالمٍ آخَر.

وفجأةً، يقطعُ الموسيقى التصويريَّةَ للفيلمِ رنينُ هاتفِه، ينظر، فيجدُ اسمَ سلمى، تُلقِي رَنَا ببصرِها على شاشةِ هاتفِه:

- مين سلمى دي؟

- دي البنت المُترجِمة اللي شغَّالة معايا، تلاقيها بس عايزة تظبِّط معايا علشان الشغل، ما قُلتِليش، اسمُه إيه "الفيلم"

Scanned by CamScanner

- ماشي يا بتاع التظبيط. ده يا سيدي اسمه The Notebook هتحبُّه. اسمع مِنّي بَسّ. استأذِنَك بَسّ تاخُدني في حُضنَك لو مش هضايقَك يعني.

ودونَ أن تنتظِرَ مِنْه ردًّا، تكوَّرتْ بينَ ذراعيه، ليُطوِّقها ويحتضِنَها، لبغمُرَها شعورٌ بالأمان لم تعهدْه من قبل، ويعيشَ هو في لحظةٍ من الهدوءِ والسَّكينةِ، والراحةِ التي لم يعهدْها.

نامتْ رَنَا في حِضنِه، فحملَها، ووضعها في السرير، نام بجوارِها، ودونَ أن تشعُرَ وفي عِزِّ نومِها، وضعتْ رأسَها على صدرِه، واحتضنتْه بقوَّةٍ، ليغُطَّا في نومٍ عميق..

استيقظ في اليوم التالي، ليجدَ نَفسَه وحيدًا، قام مُسرِعًا لِيبحثَ عنها، فإذ بها تنتظرُه في غُرفةِ المعيشة.

- صباح الخير سعادتَك، الفطار جاهز.

- فطار كمان، إيه الدلع ده؟!

- وأنا عندي غيرَك يا هيثم، اسمعني يا هيثم، أنا لازم أمشي؛ لأني قايلة لبابا إني عندي شغل وهاجي تاني يوم، وما ينفعش أفضل أكتر من كده، أنا بس جيت علشان أقولّك إني لسَّة بحبّك، ولسَّة عايزاك، ولسَّة باقية عليك، لسَّة بتوحشني، ولسَّة شايفاك جوزي، والراجل الوحيد اللي مُمكِن أطَّمّن وأنا في حُضنُه، أظن ده كان باين أوي إمبارح، أرجوك ما تضيَّعناش من بعض.

Scanned by CamScanner

تحدَّثا قليلًا، لتتركَه في حيرةٍ من أمرِه، ولكنَّ الوقتَ لم يكنْ يسمحُ لهما بالكثير، فأقلَّها إلي محطَّةِ القطار، ثم اتجهَ ليُحضِرَ سلمى، ثم اتجه إلي القِسْم.

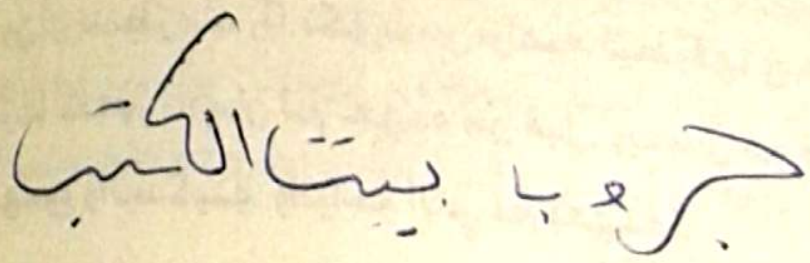

Scanned by CamScanner

٤

جروب بيت الكتب

كان في الغُرفةِ شاب عشريني، يبدو على وجهِه الإرهاقُ والحزنُ، رجلٌ يبدو أن الحياةَ أخذتْ مِنْه أكثرَ ممّا أعطتْه.

طلب مِنْه هيثمُ أن يجلسَ على الكُرسيِّ المقابِلِ للمُحقِّق، احضر له كوبًا من الماء، وأخبره بالإجراءات المُعتادَة، وعرَّفَه على المُحقِّقين وسلمى، طالِبًا مِنْه أن يبدأ في سردِ قصتِه.

نظر الرجلُ لهم بتردُّدٍ شديد، كان باديًا أن هناك أمرًا ما يشغلُه، أو يُخيفُه.

نظر إليه المُحقِّقُ، وسأله عن اسمِه، فقال:

"اسمي محمد الشامي"

فقال المُحقِّقُ:

"طيِّب وإيه قصتَك يا محمد؟ ليه مشيت من سوريا؟ وكنت رايح فين؟"

فقال محمد:

- أنا قصتي مختلفة شوي؛ كان المفروض خلّص دراستي

Scanned by CamScanner

وألتحق بالجيش النظامي، وكِنت بين نارين مِتِل ما بتقولوا بمَصر، لأن ما كان قِدّامي غير حلّين، والحلّين آخرتهون الموت: يا بلتحق بالجيش النظامي، وهيك بكُون عَمْ بِقتِل أهلي واخواتي من الطرف التاني، يا إنه هن راح يقتلوني لأن أنا بالنسبة لإلُهُون مجرم من مجرمين النظام. وفي حال إني رفضت ألتحق بالجيش، فَحياتي مُهدّدة بالخطر من قِبَل النظام بتهمة خيانة الدفاع عن الوطن ضد الإرهاب، أو أي تهمة تخطر ببالهون ممكن يلفقولي ياها. فكان الحل الوحيد عندي الهَرَب..

فقاطعه هيثمُ قائلا:

- طيّب معلّش بَسْ، إنتَ قلت إن عندَك قصة مُختلفة، وواضح من كلامَك إن القصة خلصتْ أساسًا من قبل ما تبدأ!

فردَّ عليه محمد قائلا:

- بعد إذنك، أنا لسَّة ما خلصت قصتي. بعد ما قرّرتْ اهرُب، ومشيت كِلّ الإجراءات للهروب، و قبل ما إطلّع من سوريّة، كان المفروض نتقابل مع المُهرِّب باللّي راح ياخِدْنا على تركيا، وفجأة، اكتشفت إنه المُهرِّب من أحد معارفي. سألني عن قصتي، وقلتِلّه شو اللي خلّاني إترك البلد. فعرض عليّ إنه بدل ما إهرب واتبهدل، وفي احتماليّة كبيرة إني مُوت بالبحر، إنه اشتغل مَعُه بالتهريب.. وقبلت عَرضُه..

صُدِمَ الجميعُ بمَا سمعوا. لم يكنْ أحدُهم يتوقّعُ هذا السيناريو.

أو هذا الـ "plot twist" في قصةِ هذا الشاب، ولذلك أنصتَ الجميع..

فأكمل محمد روايةَ قصتِه، قائلا:

- "ابتديت شغل معه ، اشتغلنا شغل كتير مع بعض ، هزّينا ناس كتير ، بالنسبة لإلي الموضوع كان كتير عادي ، أنا عم ساعد الناس إنو تهرب من جحيم الحرب لمكان أحسن ، يمكن يلاقوا مستقبل أحسن ،أصلاً يعني هِني بكل الأحوال هيك هيك رح يموتوا ، الحرب رح تقتلَن، يا اما رح يقتلن قصف الجيش النظامي ، يا اما رح تقتلن مدافع المقاومة ، طب ليش يعني ما ساعدُن ليحاولوا يهربوا ،مو ممكن يلاقوا حياة أحسن؟!

كان الحوارُ قد اتخذ مَنحنًى آخَر؛ لم يَعُدْ تحقيقًا لمُجَرَّدِ معرفةِ القصةِ، لمُساعدة هذا الشاب، ولكن، تحوَّلَ الأمرُ إلى تحقيقٍ فعليٍّ، من قِبَل المُحَقِّقين وهيثم؛ ربما رغبةً منهم في معرفةِ الأسرارِ وراءَ تلك المهنة، وربما رغبةً منهم في معرفة الجرائم التي ارتكبها وهو يُمارِسُ عملَه، وربما هو فقط الفضول، الذي اعترى الجميع تجاهه.

ولذلك بادره المُحَقِّقُ قائلا:

- أعذرني في السؤال، وإن كان خارج النص، لكن عندي فضول أعرف حاجة؛ ما فكّرتش في كل الناس اللي بتموت بسببَك، أو يعني بسبب شُغلَك ده؟

فردَّ عليه محمد قائلا:

Scanned by CamScanner

- شوف. انا قِلت من دقيقة بالظبط إنه هُن هِيك هِيك مِيّتين. أنا بحاول ساعدهُون. نَجُوا. كان بها. ما نجوا. بِكُون هِي ربّنا وهي حكمِتُه. تانيًا. أنا بِدّي وَضّح نقطة: إنه أنا ما كِنت بشتغل بالبحر يعني. أنا كِنت بس بوَصّلهُون للشخص اللي راح ياخِدهُون عن طريق البحر. وهِيك مهمتي بتكون خلصت. لكن بعد فترة تعبت. و ملّيت. كِنت بِدّي أهرُب من البلد كِلّها. بِدّي رُوح على بلد تانيه. و أبدأ حياة جديدة ومنيحة. وأعمل عيلة: لهِيك طلبتْ من قرايبي إنه يتوسّطلي مِنشان رُوح إشتغِل بالبحر مع شِي حَدَا من معارفُه المُهرّبين. و صار اللي طلبتُه مِنّه. واشتغلت. إيه كان الشغل بالبداية صعب: بسبب الظروف المُومْنِيحة بالمنطقة كِلّها. بس بالآخر عرفنا نلاقي وسيلة إنه إشتغِل بالبحر. كان لازم إشتغِل مَعُه فترة: مِنشان ما يشُكّ فيني. وكان الترتيب اللي ببالي إنه إهرُب عند أول محطّة لاقيها متاحة..

هرّبت ناس كتير كتير. شفت مآسي. وشفت ناس بتوصل. وشفت ناس بينضحك عليها. بس الحمد لله. ما حدا مات معي.. يمكن كان بصِير مع غيري. بس معي. الحمد لله لا.

في يوم. قالّي المُهرّب اللي بشتغل معي. إنه في ناس راح نهرّبهُون. بس هالشي كان أصلاً شَغْلة معتادة عندي. فما اهتميت كتير ب اللي قاله. ومن هون بَلّشِتْ رحلة المجموعة اللي موجودة هلّا بالسجن.

طلب محمد أن يستريحَ قليلًا. وطلب كوبًا من الشاي. فوافق

المُخْفِقون، وبالتالي وافق هيثم. أمر له بكوبٍ من الشاي، وتركوه في الغُرفةِ وحدَه قليلا.

وقفتْ سلمى بالخارج دونَ أن تتحدَّث، وكذلك انتحى هيثمُ جانبًا.

ولكن، فجأةً عمَّتِ الفوضى في جميعِ أرجاءِ القِسْم، فقام هيثمُ مُنتفِضًا؛ ليرى ماذا يحدث، وإذ به يرى العسكريَّ التابعَ له يأتي ركضًا:

- إلحَق يا هيثم بيه: تقريبًا في واحد مات فوق في الحجز بتاع السوريِّين!

فزع الجميع، فجرى هيثمُ، وجَرَتْ سلمى خلفَه، واتجها ناحيةَ الحجز، إلَّا أن أحدَ الأُمناءِ وقفَ أمامَ سلمى، ومنعها من المرور داخلَ الحجز، قالتْ له أنها مع "هيثم بيه"، فرفض الأمينُ قائلا:

- معنديش مِنُّه أوامر أدخَّلِك المرَّة دي، وبعدين ده مش فندق، ده قِسْم مش أيّ حَدّ هيفضَل رايح جاي يتفسَّح كده. واقعدي بقى على جنب لحَدّ ما نشوف المُصيبة دي.

صعد هيثمُ إلى الحجزِ مُسرِعًا. الجميعُ واقفونَ عندَ بابِ الزنزانة، بادٍ على وُجوهِهِمُ الحزنُ. دفعهم بيَدِه حتى دخلَ إلى الزنزانة، ليجد إحدى النسوة جالسةً على الأرضِ وهي تصرخُ وتبكي، مُمسِكةً بين يَدِها طفلًا صغيرًا، تُهدهِدُه وهي تصرخُ بكلامٍ يعني أنه مات. لم يكنْ وجهُ الطفلِ ظاهرًا لهيثم.

فدخل حتى وصل إلى هذه المرأة، وأزاح يَدَها ليكشِفَ وجهَ الطفل، وإذ به يتراجعُ بمُجرَّدِ أن يراه، ويبدو على وجهِه الذهولُ: فهو عمّار ذاك الطفلُ الذي طلب مِنْه أن يُحضِرَ له الحلوى عندما جاء إلى هنا في المرَّةِ الأولى.

حزن هيثمُ كثيرًا، كان يتمنَّى لو أنه أتي له بالحلوى، وأسعده ولو لدقيقةٍ واحدةٍ، في هذه الحياة البائسة. تمنَّى لو أنه احتضنه، ورأى على وجهِه تلك الابتسامةَ البريئة التي كانت على مُحيَّاه.

مرَّ الوقتُ بطيئًا على الجميع، وكان الحزنُ هو سيد الموقف.

سمحتْ إدارةُ القِسْمِ للرجال أن يُغسِّلوه ويُصلُّوا عليه، ثم قاموا بدفنِه في إحدى مقابرِ الصَّدَقةِ القريبة.

لم يكنْ لدى أيٍّ منهم طاقةٌ ليُكمِلوا التحقيق. أراد هيثمُ ان يُؤجِّلَ التحقيقَ ليومٍ آخَر، فطلب من الجميعِ أن يذهبوا اليومَ، ويأتوا في الغد لاستكمال عملهم.

مرَّ اليومُ ثقيلًا، كان هيثمُ في أسوإ حالاتِه النفسيَّة، لم تُفارِقْه صورةُ الطفلِ طوالَ اليوم، لم يُرِدْ أن يعودَ للبيتِ بعدَ الخروجِ من القِسْمِ مُباشرةً، فقد أقلَّ سلمى حتى فندقِها، كما أنه لم يتحدَّثْ مَعَها طوالَ الطريق، ولا هيَ حاولتْ أن تتحدَّثَ مَعَه في أيِّ شيء، لم يكُنِ الوضعُ يحتمِلُ أيَّ كلام، كلُّ ما سيُقالُ سيكون بلا معنًى، مُقابِلَ كُلِّ ما حدث.

بعدَ أن أوصلها للفندق، سار بسيارته كثيرًا، لم يترُكْ مكانًا

Scanned by CamScanner

على كورنيش الأسكندريّةِ إلّا وَمَرَّ عليه. وساهم الازدحامُ في أن يمضيَ وقتًا أطول في الشارع. حتى دقّتِ الساعةُ العاشرة.

دخل هيثمُ إلى المنزل في صمتٍ تام. في الحالات العادية يُحدِثُ الكثيرَ من الصَّخَب: يفتحُ كُلَّ الأنوار. يفتحُ التلفاز. يفتحُ "اللابتوب"، يُشغِّلُ بعضَ الأغاني. ولكن، اليوم كان مُختلفًا. فبمُجرَّدِ دخوله للمنزل لم يفعلْ. حتى وجد الدموع تنساب من عينيه برفق. دون أن يُحاوِلَ منعَها. لم يكن يرى غيرَ عمَّار.

لم يكنِ الأمرُ مُتعلِّقًا بعمَّار وحده. لم يكنْ عمَّارُ وحدَه هو مَنْ أبكاه. فقد تذكَّرَ صورة الطفل السوريِّ الصغير. هذا الطفل الذي هزَّتْ صورتُه العالمَ أجمع. الطفل الذي كان شاهدًا على وحشيَّةِ وقسوةِ الحرب. وعلى وحشيَّةِ وقسوةِ العالم أجمع. صورة صغيرة لطفل صغير. ولكن تأثيرها كان أقوى من ألف ألف قذيفة. وألف ألف دبَّابة. وألف ألف سلاح. وألف ألف جنديٍّ.

الطفلُ (إيلان). الذي حرَّكَ مشاعرَ الحجرِ والشجر. ولم يُحرِّكْ مشاعرَ القياداتِ السياسيَّةِ التي لا تهتمُّ سوى بالحربِ والغنائم. هذا الطفل (إيلان) الذي وجدتْه قوّاتُ الأمنِ التركيَّةِ على إحدى شواطئها. بعد أن قرَّرَ البحرُ مُعاقبتَه ومُعاقبةَ أهلِه على تركِهم لبلدِهم ووطنِهم هَربًا. قرَّر البحرُ أن يُنهِي قصتَهم عندَ هذا الحد. فضَرَبَ مركبَهم ضربةً قاسيةً. أودتْ بحياةِ الجميع. وغرق الجميعُ. واختفوا في قعرِ بحرٍ غاشم. ولم يرم لنا سوى بجثَّةِ هذا الصغير. ليكون شاهدًا على قذارة هذا العصرِ بأكمله.

Scanned by CamScanner

كان الليلُ ثقيلًا للغاية. مرَّتْ ليلتُه طويلةً. ولم ينمْ إلَّا مُتأخِّرًا.

في صباح اليوم التالي، اتجه بصُحبةِ سلمى إلى القِسْم. كان كُلُّ شيءٍ روتينيًّا، حتى حضر محمد ليُكمِلَ سردَ قصتِه، التي بدأها ولم يُكمِلْها بعد.

أتى محمد، وجلس أمامَ المُحقِّق، وبدأ في استكمالِ ما بداه البارحة.

***

تحرَّك المركبُ، وكان كُلُّ شيءٍ يسير بصورةٍ طبيعيَّةٍ، كانتِ الأمورُ عاديَّةً جدًّا، البحرُ كان في حالة مِزاجيَّةٍ جيدة، لم يُفاجِئنا بأيَّةِ حركاتٍ مُفاجئةٍ؛ بأمواجِه و ما إلى ذلك..

وفي إحدى الليالي، وبينما الجميع نائمون، دخلتُ لقائد المركب، وكنا نتحدَّثُ، وإذ به يقول:

- لمَّا نوديهم على الأسكندريَّة ونرجع، راح نشوف ها الموضوع.

استوقفتُني الكلمة، فقلت:

- إسكندريَّة شو؟! مو المفروض نروح على إيطاليا؟!

- هههههههههه إيطاليا شُو يا مجنون؟ هَدُوْل المَصَاري ما تودِّيهم أبعد من هِيك، إحنا ما فتحناها سبيل ولا جمعيَّة خيريَّة، إحنا عَمْ نسوِّي شغل، وشُو بِك ارتعبت؟! لا يكونوا

Scanned by CamScanner

قرايبَك وأنا ما بعرف. مِتلهم مِتِل غيرُون. يعيشوا ولَّا يموتوا ما بيهمنا. المهم إحنا ناخُد مصارينا وخلاص.

كان حديثُه قاسيًا. خاليًا من أيِّ مشاعرَ أو مُراعاةٍ أو إنسانيَّةٍ. كلُّ ما شعرتُ به وقتئذٍ هو الاشمئزاز من هذا الرجل. وبعدئذٍ. كنتُ قد اتخذتُ قراري.

مرَّتِ الأيامُ ثقيلةً. حتى سمعنا يومًا صُراخًا. وبعدَ الاستقصاء. علمنا أن ابنةَ هذا الشخصِ المدعوِّ مازنَ مريضةٌ. وحاول مازنُ أن يحصُلَ على الدواءِ من قائد المركب. إلا أنه رفض. كنتُ أتابعُ الأمرَ عن بُعد. ورأيتُ كيف أن هذا الرجلَ الفظَّ لم يرغبْ في إعطائِه أيَّ دواءٍ إلَّا إن أعطاهُ المالَ أولا.

كنتُ أعلمُ أن المركبَ عليه طبيبٌ. فدخلتُ مُسرِعًا إلى الغُرفةِ التي يقبع فيها هذا الطبيبُ وأيقظتُه. وأخبرتُه بالأمر فذهب إلى مازنَ ليرى ابنتَه المريضة.

قاطعه هيثمُ قائلا:

- آه. مازن حكالنا الموضوع ده.

لم يَرُدَّ عليه محمد. ولكنه نظر للمُحقِّقِ ليُخبِرَه كم كان الأمرُ قاسيًا عليه. كلُّ هذه القسوةِ. وكُلُّ هذا الجبروت. كانا فوقَ قُدرتِه على الاحتمال. أما القشَّة التي قصمتْ ظهرَ البعير فلم يكنْ سوى هذا الموقف العصيب الذي اضطُرَّتْ فيه زوجةُ مازنَ أن تُلقِيَ ابنتَها من المركب للقارب الصغير.

كان هذا الموقف هو الذي حسم كُلَّ شيءٍ بداخل محمد: أيُّ ظروفٍ، وأيُّ حربٍ، وأيُّ سياسةٍ، وأيُّ عالَمٍ، هم مَنْ دفعوا أبًا وأمًّا للاضطرار للمُغامرة بروحِ ابنتِهما؟!

كان الأمرُ محسومًا بداخلِه. فبعد أن تزل آخِرُ شخصٍ من على ظهر المركب، للقارب الصغير عند جزيرة (نيلسون)، كان محمد يحملُ حقيبتَه على ظهرِه. نظر إليه القائدُ باستغرابٍ شديد، نَهَرَه ونادى عليه. إلَّا أن محمدًا لم ينظرُ إليه بالمرَّة. لم يهتمَّ به على الإطلاق. قرَّرَ أن يُغامِرَ هو الآخَر، وليسري عليه ما يسري عليهم جميعًا. اتخذ القرارَ في لحظة، ونفَّذَه في اللحظة التالية، وفي غمضةِ عينٍ كان محمد في الماء، مُحاوِلًا الوصولَ إلى القارب، ليصل مع بقيَّةِ المجموعة إلى شاطئ الأسكندريَّة.

جروب بيت الكتب

Scanned by CamScanner

٥

انتهى محمد من سردِ قصتِه. لم تكنِ الأكثرَ ألمًا، ولكنها بالتأكيد مُعاناةٌ أُخرى، لن يستطيعَ أيٌّ مِنَّا أن يُقدِّرَها حقَّ قدْرِها.

استمرَّ التحقيقُ لمُدَّةِ أُسبوعٍ كامل، وعلى مدار سبعةِ أيامٍ كانتْ سلمى تسمعُ وتُترجِمُ، ويُعتصَرُ قلبُها ألمًا وحزنًا، وعلى الجانب الآخَر، هيثمُ يستمعُ ويُشرِف، ويستقرُّ الأمرُ في قلبِه أكثرَ وأكثر، ويتمسَّكُ بقرارِه الذي اتخذه خلالَ هذا الأُسبوع..

انتهتِ التحقيقاتُ، وانتهى عملُ هيثمَ وسلمى معًا.

مكث في الأسكندريَّةِ ثلاثةَ أيامٍ أُخرى ليُنهِيَ بعضَ الأعمال، ثم عاد إلى القاهرة، ليعودَ كُلٌّ منهما إلى منزلِه وحياتِه الروتينيَّةِ مرَّةً أُخرى.

عادت سلمى إلى ما كانت عليه، قرَّرتْ أن تُغلِقَ صفحةَ هيثم، أن تمحوها، حتى لو كانتْ صفحةً في كرَّاسةٍ صغيرة، صفحة لم تُفتَح سوى لأسبوع، إلَّا أن وَقعَها كان قاتلا.

مرَّ ما يُقارِبُ الأسبوعين. أسبوعان منذ عاد هيثم، لم تتصلْ به رَنَا، لم يتصلْ هو بها، أسبوعان مرَّا دونَ أن يتحدَّثا

Scanned by CamScanner

معًا منذ عودتِه، دونَ مُكالَمةٍ واحدةٍ أو حتى رسالة.

في نهاية الأسبوع الثاني، جاءتْ مُكالمةٌ لهيثم. كان الطرفُ الآخَرُ يُخبره بشيءٍ ما جعله يبتسم. فأنهى المكالمة بكلمة واحدة: "الحمد لله".

أنهى هيثمُ مُكالَمَته، ثم عاودَ الاتصالَ مرَّةً أُخرى برقمٍ آخَر، فجاءه الصوتُ على الناحية الأُخرى:

- ألو!

- إزَّيك يا سلمى؟

- كنت على بالي والله.

- ولا أنا على بالك، ما فكَّرتيش تتِّصلي ليه؟!

- ما إنتَ كمان ما اتصلتش.

- طَبْ سيبِك من ده دلوقتي، عندي خبر حلو.

- قول.

- الجماعة السوريين، سافروا خلاص، ووصلوا إلى الأراضي الأوروبيَّة بسلامٍ آمنين.

- بجد؟ قول والله!

- والله العظيم، الخبر لسَّة جايلي حالا.

- إنتَ ماتعرفش فرَّحتِني أدّ إيه، والله العظيم حاسَّة إني

Scanned by CamScanner

عملت حاجة في حياتي، لو قابلت ربّنا بيها هبقى راضية، الحمد لله ياربا

- طيب الحمد لله..

ساد الصمتُ بعضَ الشيء، ثم قالت:

- طيّب.. وبعدين؟!

- ولا قبلِين يا سلمي، انبسطت أوي بمعرفتِك.

ابتلعتْ ريقَها، وشعرتْ بأن قلبَها ينبضُ بعنفٍ، فقالتْ:

- أنا أسعد يا فندم.

ثم أغلقتِ الخطَّ مرَّةً واحدةً دونَ سابقِ سلامٍ أو كلام.

تنهَّدَ هيثمُ، ثم اتصل برَنَا، لترُدَّ عليه قائلةً:

- طوّل غيابَك أوي، مستنيَّة المكالمة دي بقالي كتير..

- وحشتيني، هنتغدَّى سوا النهاردة.

- إحم، للأسف، ده طلب ما أقدرش أرفضه، لأني عايزاه أكتر مِنَّك..

قبل أن يُغادِرَ هيثمُ مقرَّ عملِه، أمسك ورقةً، وكتب عليها جملةً ما، واتجه إلى مكتب رئيسِه المُباشِر، ووضع الورقةَ أمامَه:

- إيه ده يا بني؟!

- زَيّ ما سيادتَك شايف كده.

Scanned by CamScanner

- إنتَ كده مرتاح يعني؟!

- بعد إذن سعادتَك طبعًا يا فندم، أنا كده اكتفيت.

- خلاص، اللي يريَّحَك، اعتبرُه اتقبَل، ما تشِلْش هَمّ.

خرج هيثمُ من المبنى، وهو يشعر أن الهواءَ الذي يستنشِقُه جديدٌ تمامًا، وهو يشعر أنه وُلِدَ من جديد، وأنه إنسانٌ مُختلِفٌ الآن.

اتجه للمكانِ الذي سيُقابِلُ فيه رَنَا، بمُجرَّدِ أن رآها، مَدَّ يَدَه ليُسلِّمَ عليها، ولكنه لم يترُكْها تُفلت هذه المرة، ثم سارا على جانب الطريق وهما يُمسكان بأيديهما كعاشقَين صغيرَين يَشُقَّانِ طريقَ الحُبِّ لأوّلِ مرّة، ثم نظر إليها قائلاً:

- صحيح، مش أنا استقلت..

- وناوي تعمل إيه طيِّب دلوقتي؟!

- والله مش عارف تحديدًا، لسَّة مفكَّرتش يعني، بس أنا على أيِّ حال من الأحوال يعني ناوي ما أسيبكيش تاني، وده القرار الوحيد اللي قِدِرت آخدُه عن قناعة ورضا تام. ابتسم وجهُها، وابتسم قلبُها له وللدنيا، ضغطتْ على يَدَيه برِفقٍ، واحتضنتْ ذراعَه بكلتا اليدين، والتصقتْ به وكأنها طفلٌ يلتصقُ بجلبابِ أُمِّه؛ خِشيَةَ أن يتيهَ منها، فيُخطِئَ الطريقَ ويضِلَّ للأبد..

تمت

حصريات جروب بين الكتب

جروب بيت الكتب

آخرُ أرقامِ للاجئين السوريين وفقًا لِمَا أصدرتْه مُفوَّضيَّةُ شئونِ اللاجئين، التابِعةُ للأُمَمِ المُتَّحدة:

- تركيا: ٢,٥ مليون لاجئ.
- عدد النازحين داخل سوريا: حوالي ٧.٦ مليون شخص.
- العراق: ٢٤٩,٤٦٣ لاجئ.
- الأردن: ٦٢٩.٢٤٥ لاجئ مُسجَّلون بصورةٍ رسميَّةٍ، ولكن هناك توقُّعاتٌ بأن تَصِلَ الأعدادُ في المُجمَل إلى (١.٤) مليون لاجئ.
- مِصر: ١٣٢,٣٧٥ لاجئ.
- لبنان: ١,١١٣ لاجئ.

هذه فقط الأرقام الرسمية، وما خفي كان أعظم

Scanned by CamScanner

جزيرة نيلسون

مَدَّ مازنُ يديه في وضع الدعاء، لم يكن يدعو بلسانه، بل كان يُصلّي بقلبِه، يدعو اللهَ أن تنجوَ ابنتُه، يدعوه ألّا تغرقَ في غياهبِ هذا البحرِ اللعين، الذي قرَّرَ أن يُفسِدَ كلَّ شيءٍ فجأةً، كان يدعو اللهَ وهو مادٌّ يَدَيه لالتقاطِ ابنتِه المُعلَّقَةِ بينَ السماءِ والبحر، وما إن قذفَتْها ريمُ عاليًا في الهواء، حتى توقفَ الزمنُ عندَ هذه اللقطة؛ أمٌّ تبكي، ترمي ابنتَها، الابنةُ مُعلَّقةٌ بينَ السماءِ والبحر، الأبُ على وجهِه كلُّ علاماتِ الرعبِ والذهول، مادًّا يديه ليلتقِطَ ابنتَه، وفي لحظةٍ من الجنون، ولحظةٍ من اللَّا وعي، يلتقطُ مازنُ عائشةَ، لترتطِمَ الصغيرة بصدرِه، ويقعَ بها داخلَ القاربِ المطّاطيِّ، نَجَتْ عائشةُ وتنفَّسَ الجميعُ الصعداء.

كريم هشام

تخرج في كلية آداب قسم لغة إنجليزية عام 2010، يعمل بالترجمة منذ تخرجه وحتى الآن. صدرت له ثلاثة أعمال، [illegible] مترو إسكندرية"، "يوتيرن"، ورواية مترجمة بعنوان "إلا إذا"، و"جزيرة نيلسون" هي عمله الرابع.

Karim Adam
KARIM ADAM DESIGNS

المصري